

المحافظة السامية للأمازيغية Asqamu Unnig n Timmuzya

•ⵝ•ⵏ: ⵉⵔⵓ ⵏ ⵜⵉⵎⵓⵣⵓⵔ

Haut Commissariat à l'Amazighité

Direction de la Promotion Culturelle

# فَعَالِيَات

إمارة كوكو

تيزي وزو

30 سبتمبر 2010

ممالك الأمازيغ  
في العهد الإسلامي

بسكرة

2-1 ديسمبر 2010

المحافظة السامية للأمازيغية

2011





اليوم الدراسي حول إمارة كـوكـو

---

ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي



Asqamu Unnig n Timmuzya  
•ⵜⴰⵎⴻⵣⴻⵢⴰⵏⵜ ⵏ ⵜⴰⵎⴻⵣⴻⵢⴰⵏⵜ  
Haut Commissariat à l'Amazighité  

---

Direction de la Promotion Culturelle

## فعاليات

اليوم الدراسي حول إمارة كوكو  
تيزي وزو  
يوم 30 سبتمبر 2010

المحافظة السامية للأمازيغية  
2011



## الفهرس

إمارة كوكو (1511-1767م)

الدكتور أرزقي شويتام

أستاذ محاضر، قسم التاريخ جامعة الجزائر





## إمارة كوكو (1511-1767م)

الدكتور أرزقي شويتام  
أستاذ محاضر، قسم التاريخ جامعة الجزائر

بعد أن دخلت الدولة الزيانية في مرحلة ضعف في أواخر القرن الخامس عشر، تعرضت الجزائر إلى انقسامات داخلية، فأصبح النظام القبلي هو السائد في كل أرجاء البلاد. وقد أدى هذا التشرذم إلى عدم ظهور قوة محلية قادرة على ضمان استمرار الدولة. واستمرت هذه الظاهرة إلى أن جاء الأتراك العثمانيون، الذين حاولوا جمع شمل القبائل المتناثرة في كيان سياسي موحد. وبتناول في هذه المداخلة إحدى الإمارات التي تأسست في بلاد الزواوة في مطلع القرن السادس عشر، ألا وهي إمارة كوكو، محاولين الإجابة على إحدى الإشكاليات الأساسية، وهي : ما هي العوامل التي حالت دون تمكن هذه الإمارة وغيرها من القوى المحلية، من ضمان استمرارية الدولة في الجزائر بعد سقوط الدولة الزيانية ؟ إن الإجابة على الإشكالية المطروحة، يتطلب في البداية أن نقدم لمحة عن ظروف تأسيس الإمارة، ثم نعالج العوامل التي أدت إلى ضعفها، وإلى عدم قدرة أمرائها على الارتقاء بها إلى دولة محلية تحل محل العثمانيين في الجزائر.

### ظروف تأسيس الإمارة:

بعد أن تمكن الإسبان من احتلال مدينة بجاية في عام 1510م، التي كانت خاضعة للحفصيين في تونس، اضطرت بعض الأسر وفئة

## إمارة كوكو

العلماء إلى مغادرة المدينة، لتستقر في دواخل البلاد. ومن بين الشخصيات التي تركت المدينة، أحمد بن القاضي الذي التحق بأعلى جرجرة حيث يؤسس إمارته في عام 1511م، قصد مواجهة الخطر الإسباني الذي أضحي يهدد كل البلاد. ولم يكن بوسع أحمد بن القاضي إلا الاستعانة بالأتراك العثمانيين عروج وخير الدين، نظرا لقلّة إمكانياته المادية والعسكرية. وقد قامت الأطراف المتحالفة خلال الأعوام 1512م، و1513م، و1514م بثلاث محاولات لاسترجاع بجاية من الإسبان، إلا أنها باءت كلها بالفشل (1). وقد وصف خير الدين في مذكراته إحدى المحاولات التي أصيب فيها عروج، قائلا: "شرع أخي في مهاجمة القلعة التي كانت تمطر علينا وابلا من قذائف المدفعية والقنابل. خلال ذلك فقدنا ستين شهيدا وعددا كبيرا من الجرحى. كنا على وشك الاستيلاء على القلعة، غير أنه في الوقت الذي اشتد فيه لهيب المعركة، أصيب أخي بقذيفة في ذراعه الأيسر" (2). ويبدو أن الأتراك العثمانيين قد تمكنوا من فتح إحدى قلع مدينة بجاية في محاولتهم الثالثة، وهذا ما جاء في مذكرات خير الدين، إذ قال: "بعد فتح القلعة، جاء جميع شيوخ وقواد المناطق المجاورة لبجاية مبايعين لي، ومن هنا انتصبت أنا وأخي عروج ملكين على هذه البلاد" (3).

### تطور العلاقات بين ابن القاضي الابن والعثمانيين

بعد أن قتل عروج في إحدى المعارك التي جمعته بأبي حمو الزياني المتحالف مع القوات الإسبانية في وادي المالح بضواحي تلمسان في عام 1518م، قرر خير الدين مغادرة الجزائر، نظرا لما كان يواجهه من الأخطار الداخلية والخارجية (4)، إلا أن أعيان الجزائر قد أقتنوه

(1) مجهول : غزوات عروج وخير الدين، اعتنى بتصحيحه وتعليق حواشيه نور الدين عبد القادر، المطبعة الثعالبية، الجزائر 1934، ص. 18.

(2) مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد دراج، شركة الأصاله للنشر والتوزيع الجزائر 2010، ص. 52.

(3) نفسه، ص. 72.

(4) بعد مقتل عروج خرجت معظم القبائل التي سبق لعروج أن أخضعها عن طاعة خير الدين، منها تلك الواقعة بين تنس وبلاد الزواوة، كما كان مهدها من الزيانيين. أما خارجيا، فكان خير الدين يواجه الخطر الحفصي والإسباني. أنظر غزوات...، ص. 41.

على أن يتراجع عن قراره. فوافق خير الدين على ذلك، إلا أنه اشترط منهم إرسال وفد إلى استانبول لطلب الإغاثة من السلطان سليم الأول (1512-1520م). وقد ذكرت المصادر أن من الشخصيات التي كانت ضمن أعضاء الوفد، أبو العباس أحمد بن القاضي (5). وجاء في مذكرات خير الدين عن ابن القاضي الآتي: "لقد كان ابن القاضي أحد عظماء العرب بالجزائر، كما كان يكنى لي قدرا كبيرا من الصدق والمودة. حاول سلطان تونس أن يحرضه للخروج علي، إلا أنه لم يوافقه على ذلك ودعاه، إلى لزوم الطاعة للأتراك والتبعية لهم" (6). كان معظم الباحثين المهتمين بتاريخ الجزائر، لاسيما القرن السادس عشر، يتساءلون عن سبب توتر العلاقات بين أحمد بن القاضي وخير الدين مباشرة بعد عودة الوفد من استانبول في عام 1519م. فإذا عدنا إلى مذكرات خير الدين، فنلاحظ أن الباحثين، قد اختلط عليهم الأمر، إذ كانوا يعتقدون أن ابن القاضي خرج عن طاعة العثمانيين بعد أن سبق له أن تحالف معهم، وهذا ما تؤكد أيضا معظم مصادر تلك الفترة. وقد يزيل هذا الإشكال بالعودة إلى ما جاء في مذكرات خير الدين، التي ورد فيها الآتي: "الآن توفي هذا الرجل (ابن القاضي) العاقل وحل محله ولد طائش يدعى ابن القاضي أيضا، فكان أول ما فعله أن اتفق مع سلطان تونس على أن يكونا يدا واحدة ضدي، قائلا له: "لنكن يدا واحدة، ونخرج الأتراك من بلاد العرب". كانت الرسالة التي بعث بها هذا الولد الشقي إلى سلطان تونس قد وقعت في يدي، وذلك قبل أن يمضي شهران على وفاة والده" (7).

حسب ما ورد في الرسالة التي وجهها أعيان مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول، فإن أبا العباس أحمد بن القاضي كان ضمن أعضاء الوفد الجزائري المتوجهين إلى استانبول (8). فالسؤال المطروح، هو إذا كان اسم ابن القاضي الأب هو أحمد، فما هو اسم الابن الذي اكتف خير الدين

(5) عبد الجليل التميمي: "أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول"، في المجلة التاريخية المغربية، العدد 6، تونس 1976، ص. 119.

(6) مذكرات خير الدين، ص. 109

(7) نفسه، ص. 109

(8) التميمي: المصدر السابق، ص. 119.

## إمارة كوكو

بنعته بابن القاضي فقط؟ هل الابن حمل اسم والده؟ فقد تداول في الروايات الشفوية المحلية عند ذكرها لابن القاضي اسمان، هما أحمد والقاضي وحند والقاضي. ونعتمد أن الأب هو أحمد أما الابن هو حند، ونظرا للتشابه الموجود بين الاسمين، فكان الاعتقاد السائد عند الباحثين وعامة الناس أن الاسمين تعود إلى شخص واحد. وعلى أي حال، فإن ما ورد في مذكرات خير الدين يؤكد بوضوح أن الأب والابن تعاملتا مع خير الدين إلى غاية العقد الثاني من القرن السادس عشر، وأن الخلافات بين ابن القاضي الابن وخير الدين، قد بدأت بعد موت ابن القاضي الأب بشهرين. ويبقى البحث متواصل في وثائق تلك الحقبة لمعرفة الاسم الحقيقي لابن القاضي الابن.

قام خير الدين بتنفيذ حملة عسكرية على تونس، وبعد عودته إلى الجزائر، وقع في كمين نصبه له ابن القاضي ورجاله. وقال خير الدين عن هذه الواقعة: " لم أكن أن أتوقع أن تقع في هذا الكمين، وهكذا بسبب عدم ملاءمة المكان للقتال مع هول المفاجأة، فقدت الكثير من رجالي. دامت المعركة ثلاث ساعات ونصف، تمكنا بعدها من تجاوز الممر، واستطعنا أن نصل إلى الجزائر. لقد سقط في هذه المعركة سبعمائة وخمسون شهيدا من البحارة. وبسبب هذا العذر أخذت على نفسي عهدا أن أنتقم من ابن الحرم هذا المدعو ابن القاضي، ولن أعفوا عنه أبدا"<sup>(9)</sup>. بعد أن تمكن ابن القاضي من احتلال مدينة الجزائر في عام 1520م، اضطر خير الدين إلى الانسحاب منها ليستقر بجيجل. ويذكر خير الدين تفاصيل الهزيمة التي مني بها أمام قوات ابن القاضي، قائلا: " وفي النهاية هبت العاصفة وشن ابن القاضي هجوما كبيرا بجيش قوامه أربعون ألف رجل... بقت بإرسال عشرة آلاف بحار للتصدي للثائرين. فاشتبكوا معهم في معركة كبيرة دامت حتى العصر، فقدت في تلك المعركة ألفي شهيد وألفي جريح. إلا أن المعركة انتهت بالقضاء على العصاة عن بكرة أبيهم، ولم ينج منهم سوى سبعمائة ثائر. أما بقيتهم، فقد تم قتلهم أو أسرهم. وكان على رأس الثائرين الذين وقعوا في الأسر شيخ

<sup>(9)</sup> مذكرات خير الدين، ص. 110

## إمارة كوكو

مدينة الجزائر، أمرت بإعدامه وقطع جسده اللعين إلى أربع قطع، وتعليق كل منها على باب من أبواب المدينة ليكون عبرة لغيره..."<sup>(10)</sup> وقد قام خير الدين بإعدام الأسرى الثائرين، ويعترف بذلك في مذكراته، إذ قال: "وبعد إخماد الثورة، أتيت بمائة وخمسة وثمانين من رؤساء الفتنه مقيدي الأيدي... فأمرت بضرب أعناق زعماء التمرد"<sup>(11)</sup>. وبعد هذه الأحداث الدامية، قرر خير الدين مغادرة مدينة الجزائر، ليستقر بجيجل كما سبق الذكر. وقام خلال المدة التي قضاها في جيجل بإعداد العدة وتنظيم صفوف جيشه، كما أنه ربط علاقات ودية مع أمير إمارة بني عباس. وبعد مرور خمس سنوات من خروج خير الدين من مدينة الجزائر، قرر أن يشن حملة عسكرية ضدها لاسترجاعها. وقد انتهز خير الدين سوء العلاقات بين ابن القاضي وأعيان مدينة الجزائر ليقوم بتنفيذ حملته. ويصف خير الدين الوضع في مدينة الجزائر تحت حكم ابن القاضي وعلاقات هذا الأخير بالأعيان، قائلا: "في هذا الوقت كانت الوفود تتوالى علينا من الجزائر. فقد عرف الأهالي قدرنا جيدا خلال فترة قصيرة لمغادرتنا للمدينة. لقد اختل نظام الأمن وتدهورت الأوضاع في المدينة، فتضاعفت نتيجة لذلك مشاعر التذمر من ابن القاضي. ففي النهاية شكل الأهالي وفدا ليكلم ابن القاضي، فأتوه وقالوا له: "نعتقد بأن استدعاء خير الدين باشا فيه خير لنا... لقد جنناك راجين أن تسمح لنا بدعوة خير الدين من جيجل وتنصرف أنت إلى قبيلتك"<sup>(12)</sup>. وبعد الإلحاح المتزايد لأعيان مدينة الجزائر، قرر خير الدين أن يستجيب لمطلبهم، وهو العودة إلى مدينة الجزائر. فقال في هذا الأمر: "مضت ثلاثة أعوام على مغادرتنا لمدينة الجزائر، تضاعفت خلالها الوفود التي كانت جميعها تطلب منا العودة إلى الجزائر"<sup>(13)</sup>. فعاد إذا خير الدين إلى مدينة الجزائر على رأس جيش قوامه أربعة آلاف فارس وثمانية آلاف رجل، وفي طريقه إلى الجزائر، التحق به آلاف من

<sup>(10)</sup> نفسه، ص. 114.

<sup>(11)</sup> نفسه، ص. 115-117.

<sup>(12)</sup> نفسه، ص. 123.

<sup>(13)</sup> نفسه، ص. 124.

## إمارة كوكو

فرسان الأرياف المجاورة. وقد دخل ابن القاضي في حرب ضد جيش خير الدين المدعم بالقوة المحلية، وعادت الكفة في النهاية لصالح خير الدين، الذي تمكن من القضاء على ابن القاضي. ويقول خير الدين عن مقتل ابن القاضي الآتي: "دام القتال الغريب حتى المساء، حيث قتل قائده قارة حسن- الذي كان أحد بحارتي ثم تمرد علي ولحق به- فلم يبق لابن القاضي أي مجال للنجاة. وعندما كان يهيم بالفرار، طعنه أحد شيوخ العرب برمحه حتى خرجت من ظهره. ثم أمر الشيخ بقطع رأسه وأرسله إلي" (14).

وبالرغم من كل ما حدث بين ابن القاضي والأتراك العثمانيين، فإن العلاقات بين الطرفين ستعرف تحسنا في عهد حسين بن خير الدين الذي كانت تربطه علاقة المصاهرة مع آل القاضي، إلا أن ذلك لا يعني أن الخلافات قد انتهت الطرفين، بل ستتكرر المناوشات عبر التاريخ، كما تتكرر أيضا علاقات المصاهرة بين العثمانيين وعائلة ابن القاضي. فقد ربطت بعض الشخصيات العثمانية علاقات المصاهرة مع آل القاضي، نذكر منها: الرايس علي بتشسين، وباي التيطري محمد بن علي (1745-1754م).

يمكن أن نستخلص مما تقدم الأسباب التي كانت وراء انهزام ابن القاضي أمام العثمانيين، منها: 1 - أن الحرب بين الطرفين لم تكن متكافئة، لا من حيث العدد ولا من حيث العدة. فالجيش العثماني كان يتميز بالانضباط، ويتقن فنون القتال، عكس جيش ابن القاضي الذي كان يفتقر إلى الأسلحة الحديثة المتطورة، والأسطول البحري، فكل معاركه كانت في البر. كما أنه لم يتمكن من تعبئة سكان الأرياف والمدن، فاكتفى بأفراد بجيشه المجندين من بلاد الزواوة.

2 - أن سوء معاملة رجال ابن القاضي لسكان مدينة الجزائر، جعل هؤلاء يتآمرون ضده مع الأتراك، والدليل على ذلك أنهم كانوا يرسلون وفودا باستمرار إلى جيجل، كما أنهم وقفوا إلى جانب خير الدين لما قرر استرجاع مدينة الجزائر.

(14) نفسه، ص. 128.

## إمارة كوكو

3 - أن خير الدين قد أخذ الوقت الكاف ليحضر نفسه للقيام بالهجوم النهائي على مدينة الجزائر، كما أنه عرف كيف يكسب ود القبائل الشرقية من جيغل إلى بني عباس، التي قدمت له الدعم في المعركة الحاسمة ببني عائشة.

### عوامل ضعف الإمارة وانهيائها:

بعد مضي قرن من تأسيس الإمارة، بدأت عوامل الضعف تلوح في الأفق. فكانت البداية باندلاع الخلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة في مطلع القرن السابع عشر. وقد أدى ذلك النزاع إلى عدم استقرار مقر السلطة، إذ اتخذ أمراء كوكو خلال فترة حكمهم عددا من المقرات لإمارتهم، منها كوكو وأورير وأسلام. وقد انعكس هذا التنقل المستمر لمركز السلطة سلبا على استقرار الإمارة. وعلاوة على ما ذكر، هناك جملة من العوامل الداخلية والخارجية التي ساهمت في ضعف الإمارة وزوالها في النهاية. ونحاول خلال هذا العرض أن نحلل بعضا منها.

- الصراعات العائلية: بدأ التنافس بين أفراد العائلة الحاكمة حول السلطة بعد مقتل أمير كوكو أمير بن القاضي في عام 1618م. ومهما اختلفت المصادر حول تحديد هوية الشخص الذي قام بارتكاب هذه الجريمة، فإن المؤكد هو أن الإمارة دخلت في مرحلة الاضطرابات الداخلية، التي تسببت في ضعفها، مما جعل الأمراء الذين سيأتون فيما بعد غير قادرين على فرض سلطتهم على الرعية، إذ لاحظنا أن بعد مقتل أمير بن القاضي الذي عرف بحزمه وشدته في تسيير شؤون إمارته، تحررت عدة أجزاء من بلاد الزواوة من هيمنة الإمارة. فقد ذكرت المصادر أنه "بعد أيام معدودة من الخلاف الذي وقع بين أمير بن القاضي والشيخ سيدي منصور الجنادي، ضربه أحد أعدائه بالرصاصة فقتله، وتشتت أمر الخلافة ولم تتعقد مدة طويلة. وبقيت الأعراش مهملة، فصار الناس يتحاكمون إلى العلماء والأولياء لكن بالاختيار لا بالقهر والإجبار، وبقي الحال كذلك إلى أن خرج الترك من الجزائر" (15).

<sup>15</sup> ) A. BOULIFA : Le Djurdjura à travers l'histoire, de l'antiquité à la période coloniale, Bérti éditions, Alger S.D. P.6.



## إمارة كوكو

وقد استغل أحد أفراد الأسرة القاضوية الظروف الحرجة التي كانت تمر بها الإمارة، لينقل مقر الإقامة للإمارة من كوكو إلى أورير ثم أشلام في بني غبرين ( 1636-1693م)<sup>(16)</sup>. وهنا أيضا اختلفت المصادر في تحديد اسم الشخص الذي استولى على عرش الإمارة. فالأرجح أن يكون أحمد بن أمير بن القاضي المقتول، الذي كان يعرف بأحمد التونسي، إذ بعد مقتل والده، فرت والدته إلى تونس، وبعد فترة من الزمن، عاد إلى بني غبرين ليسترجع عرش والده الضائع، وكان له ذلك بعد أن تلقى الدعم من الأتراك العثمانيين.

إن استيلاء أحمد بن أمير بن القاضي على السلطة قد ساهم في اشتداد الخلافات بين أفراد الأسرة، فتفككت الإمارة وتفرعت إلى عدة فروع، وهذا ما يفسر سبب تعدد مقرات الإمارة. ففي عام 1696 قام أرخو بن أحمد بن أمير بتأسيس فرع في جمعة الصهريج<sup>(17)</sup>. وما يمكن قوله، هو أن هذا التشتت الذي عرفته الأسرة الحاكمة كان من الأسباب التي ساهمت في إضعاف الإمارة، مما جعلها عاجزة عن فرض سلطتها محليا، ومواجهة الخطر الخارجي المتمثل في العثمانيين. وما يمكن ملاحظته، هو أن أحفاد آل القاضي قد تخلوا عن مشروع أجدادهم المتمثل في تأسيس إمارة قوية يمكنها أن تنافس العثمانيين، بل هناك من استنجد بالعثمانيين ضد أفراد عائلته، وهكذا فتحوا لهم المجال للتوغل في أعالي سيباو، وإخضاع لطاعتهم العديد من قبائل بلاد الزواوة، مثل مقلع وجمعة الصهريج، التي كانت إلى فترة قريبة تتمتع بالاستقلال النسبي.. الصراع بين الإمارة والقوى الدينية المحلية: لقد أدى تسلط بعض الأمراء، لاسيما أمير بن القاضي، إلى ظهور حركة انفصالية في بعض جهات من بلاد الزواوة، ابتداء من العقد الثاني من القرن السابع عشر. وكان وراء هذه الحركة، شيوخ الزوايا، الذين كانوا يحاولون الاستقلال عن نفوذ أمراء كوكو. علما أن كلا النظامين (الزوايا والإمارة)، كانا قائمان على ما يدفعه السكان في شكل ضرائب وعوائد. وما دام السكان

<sup>(16)</sup> أحمد ساحي : الزواوة من القرن 16 حتى 18، عهد الإمارة 1512-1767، رسالة ماجستير،

جامعة الجزائر 1999، 117.

<sup>(17)</sup> للمزيد من التفاصيل عن أطوار الإمارة، أنظر ساحي، المرجع السابق.

## إمارة كوكو

كانوا يدفعون الضرائب للإمارة، التي تمثل السلطة السياسية أو الزمنية، فلم يبق لهم ما يدفعونه للزوايا. وكانت مسألة الضرائب مصدر التنافس بين الأمراء وشيوخ الزوايا، مما أدى إلى توتر العلاقات بين الطرفين. وقد حاول شيوخ الزوايا استغلال كل الفرص المتاحة لهم لتأليب السكان ضد الأمراء، قصد الانفصال والابتعاد عن دائرة تأثيرهم. وما يشير بوضوح إلى العلاقة الموجودة بين أمراء كوكو وشيوخ الزوايا، ذلك اللقاء الذي وقع بين الشيخ سيدي منصور الجنادي وأمر بن القاضي أمير كوكو. فقد نقلت لنا إحدى وثائق تلك الفترة تفاصيل تلك الحادثة، ومما جاء فيها: "والسلطان في ذلك الوقت هو المسمى بسيدي أمر بن القاضي وهو يحكم في بلاد الزواوة كلها، وكان حكمه قاهرا جدا. ومن عادة هذا السلطان أن يحمل البغال والحمير من عرشنا في وقت الصيف لنقل زرع والخدمة عليها، فيعطل على الناس أشغالهم دائما. ومن عادته أن يأتي هو وجنوده إلى سوقنا المسمى بالخميس في ذلك الوقت، والآن يسمى بالأحد، فيلزم العرش بالضيافة تصل إليه في ذلك المحل مع العلف الكثير لخيول جيشه. وفي بعض الأيام جاء ذلك السلطان إلى السوق المعلوم، فأراد الناس من العرش أن يذهبوا إليه بالضيافة كالعادة، فقال لهم سيدي منصور لا تذهبوا إليه بل يأتي هو إلى هنا، فامتثلوا لقوله. فلما ينس السلطان من قدومهم إليه، تعجب من ذلك الفعل، وصار يسأل عن السبب الذي منعهم من الضيافة المعتادة، فقبل إن سيدي منصور هو الذي أمرهم بالامتناع"<sup>(18)</sup>.

نستخلص من محتوى الوثيقة المذكورة بعض الحقائق التاريخية، منها: - أن منطقة بني جناد كانت خاضعة لسلطة أمراء كوكو في مطلع القرن السابع عشر.

- أن الضريبة التي كان يدفعها سكان بني جناد كانت تعرف بالضيافة التي تتمثل في المنتجات الزراعية والعلف، كما أنهم كانوا يضعون حيواناتهم تحت تصرف الأمير. وإذا عرفنا الإمكانيات الاقتصادية

<sup>18</sup>) BOULIFA : OP. CIT., P.6.

## إمارة كوكو

المتواضعة لسكان بني جناد، يمكن أن نجد تفسيراً لسبب انتفاضهم ضد سلطة الإمارة.

- أن الوثيقة تبين جلياً دور شيوخ الزوايا وتأثيرهم في المجتمع الزواوي، فقد تمكن الشيخ سيدي منصور من تحرير السكان من السيطرة التي فرضها عليهم أمراء كوكو، واستطاعوا في نفس الوقت من تخطي حاجز الخوف الذي خيم عليهم أزيد من قرن.

- أن السلطة الروحية في بلاد الزواوة أصبحت تنافس السلطة الزمنية. فقد لعبت القوى الدينية في بلاد الزواوة دوراً مهماً خلال الفترات التي كانت فيها المنطقة تمر بفراغ سياسي.

يعد الصراع الذي نشب بين أمراء كوكو والقوى الدينية المحلية في بداية القرن السابع عشر، من الأسباب التي كانت وراء ضعف مركز الإمارة وتقلص رقعتها الجغرافية في بلاد الزواوة نفسها. وقد ترتب على هذا الوضع، انضمام بعض القبائل إلى الإدارة العثمانية، كما هو الشأن بالنسبة لمعظم القبائل الواقعة في حوض سيباو ويسر. والدافع إلى ذلك،

هو أن موقعها الجغرافي لم يكن يسمح لها بالصمود أمام الحملات العسكرية العثمانية لسهولة عملية الاتصالات، وأيضاً لكونه قريب من مدينة الجزائر مركز السلطة العثمانية، كما أنه توجد به أبراج ترابط بها الحاميات العسكرية<sup>(19)</sup>. وعلاوة على ذلك، فإن العثمانيين عمروا تلك المناطق السهلية بعناصر خارجية، كما قام القائد علي خوجة في حدود عام 1720م<sup>(20)</sup>، بإنشاء سوقين في منطقة بغلية، التي أصبحت تعرف بالسبت علي خوجة، وسوق وادي الدفالي. وكان يتوسط السوقين برج سيباو. وقد توصل العثمانيون بهذه الإجراءات من السيطرة على كل أجزاء حوض سيباو السفلي.

<sup>19</sup>) H. AUCAPITAINE : « Notices sur l'histoire et l'administration du Beylik de Titeri », R.A. N° 9, Alger 1865, P.281.

<sup>20</sup>) N.J. ROBIN : « Note sur L'Organisation Militaire et Administrative des Turcs dans la grande Kabylie », in R.A. N° 17, Alger 1873, P.138.

## إمارة كوكو

أما القبائل الجبلية، فإن موقعها المنيع جعلها تلتف حول شيوخها، وتحفظ باستقلالها النسبي، فلم تعود تعترف بأمراء كوكو ولا بالإدارة العثمانية.

- النظام القبلي : تتفرق بلاد الزواوة إلى سلطة مركزية، فالنظام القائم منذ أقدم العصور، هو ما يعرف بتجماعت، وهو عبارة عن مجلس يضم كل أفراد القبيلة البالغين، ومن مهامه عقد جلسات دورية يتخذ فيها الأعضاء القرارات الضرورية لتنظيم شؤون السكان<sup>(21)</sup>. وغالبا ما كان هذا النظام عائقا أمام إرادة أمراء كوكو الرامية إلى توحيد كل أعراش بلاد الزواوة تحت سلطتهم<sup>(22)</sup>. فهناك بعض الأعراش التي فضلت سلطة مجالسها عن خضوعها لإدارة الإمارة. وقد استفحلت هذه الظاهرة في فترة ضعف الإمارة، إذ لاحظنا أن العديد من القبائل والأعراش قد خرجت عن طاعة أمراء كوكو، فلم تعود تدفع ما عليها من الضرائب. ولاشك أن هذا الإجراء تسبب في انخفاض موارد الإمارة المالية، وهذا ما جعلها عاجزة عن تجنيد الجيوش وتجهيزها بالأسلحة الضرورية لمواجهة الأخطار الخارجية، والدفاع عن رقعتها الجغرافية محليا. وقد رأينا أن عدة مناطق ضاعت منها في مرحلة ضعفها لصالح العثمانيين والقوى المحلية المنافسة لها.

- الصراع بين الإماراتين (كوكو وبني عباس): لقد سعى أمراء كوكو منذ تأسيس إمارتهم، إلى إخضاع إمارة بني عباس المجاورة لهم لسلطتهم. ولهذه الأسباب توترت العلاقات بينهما عبر المراحل التاريخية المختلفة. وقد اشتد الصراع بين الإماراتين لما ظهرت أطراف خارجية في المنطقة في مطلع القرن السادس عشر، المتمثلة في الإسبان والعثمانيين، الذين أصبحوا يتدخلون في شؤون الإماراتين. فقد حدث أن تحالف أمراء الإماراتين مع العثمانيين في مطلع القرن السادس عشر، قصد مواجهة

<sup>21</sup> HANOTEAU : OP. CIT., T.2, P.18.

<sup>22</sup> يصف أحد الفرنسيين النظام الذي كان قائما في بلاد الزواوة، قائلا: " إنه نظام جمهوري فيدرالي، دون أن يكون هناك حكم مركزي. فالوحدة السياسية والإدارية للمجتمع كانت تمثلها القرية، وكل قرية بمثابة جمهورية حقيقية مستقلة". أنظر BIBESCO : « Les Kabyles du Djurdjura, la société kabyle avant la conquête », in R.M. Imp. J. Chaye, année 1859, P.6.

## إمارة كوكو

الخطر الإسباني، الذي أضحي يهدد المدن الجزائرية الساحلية. إلا أن ذلك التحالف ما لبث أن تلاشى، بعد أن ظهرت الخلافات بين خير الدين وابن القاضي، والتي انتهت بمقتل ابن القاضي في معركة فاصلة جمعت الطرفين في عام 1527م، ببني عائشة. وقد تمكن خير الدين خلال الحرب المذكورة من استمالة أمير بني عباس إلى صفه، وهذا ما دفع أمراء كوكو إلى التقرب من الإسبان في فترة صراعهم مع العثمانيين. وقد عرفت العلاقات بين العثمانيين وأمراء كوكو تطورا في النصف الثاني من القرن السادس عشر، إذ قام حسن بن خير الدين، بإيلر باي الجزائر وعلج علي، بمصاهرة أسرة ابن القاضي. وتززت العلاقات بين آل القاضي والعثمانيين في القرن السابع عشر، إذ استعان بعض أمراء كوكو بالعثمانيين ضد خصومهم من نفس العائلة. ويعد ذلك التقارب الذي وقع بين العثمانيين وأمراء كوكو، تحالفا استراتيجيا فرضته ظروف تلك المرحلة، لاسيما أن العثمانيين قد دخلوا في حرب مزمنة ضد أمراء بني عباس<sup>(23)</sup>.

ومهما كانت طبيعة العلاقات بين الإماراتين، فإن المستفيد الأول من الصراع القائم بينهما، هم العثمانيون، الذين عرفوا كيف يحافظون عن طريق سياسة الصفوف المتبعة، على التوازن في بلاد الزواوة، والإحالة دون تحقيق الوحدة بين الإماراتين، وتشكيل قوة محلية قادرة على ترجيح الكفة لصالحها على حساب العثمانيين.

تلك هي العوامل التي ساهمت في ضعف إمارة كوكو وانهيارها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، والتي حالت دون تمكن أمراء كوكو أزيد من قرنين من الحكم، من وضع نواة لدولة محلية قادرة على أخذ مكان العثمانيين. ولفهم بشكل أوسع أسباب فشل الإمارة في تحقيق أهدافها، لا بد من دراسة السياسة التي اتبعها العثمانيون في بلاد الزواوة خلال فترة حكمهم في الجزائر.

<sup>23</sup> ) E. MERCIER : Histoire de Constantine P.190.

## سياسة العثمانيين في بلاد الزواوة:

لقد أولى الأتراك العثمانيون أهمية خاصة لبلاد الزواوة، وذلك منذ بداية تواجدهم في الجزائر في مطلع القرن السادس عشر. وتعود أسباب هذا الاهتمام، إلى وجود الزعامات المحلية المنافسة لهم، والمتمثلة في آل القاضي وآل عباس، وإلى موقع المنطقة الاستراتيجي الذي يتوسط بابلك الشرق بدار السلطان مركز السلطة. ولهذه الأسباب وغيرها، حاول الأتراك العثمانيون توظيف كل الوسائل لفرض سيطرتهم على بلاد الزواوة، وإدخال تنظيماتهم المختلفة. ومن تلك الوسائل، نذكر منها:

1 - تشييد القلع العسكرية: شيد العثمانيون عددا من الأبراج والقلع العسكرية في الجهات الحساسة ببلاد الزواوة، مثل برج منايل، وسيباو، وبوغني، وتيزي وزو، ودلس<sup>(24)</sup>. وكان الغرض منها، مراقبة تحركات السكان، وفرض الخناق عليهم، وضمان عملية الاتصال بين مختلف الجهات، لاسيما بين بابلك قسنطينة ودار السلطان. وما لاحظناه أن الأبراج العسكرية قد نصبت في المناطق السهلية الزراعية، وسفوح الجبال، وهذا ما يؤكد الأهداف الأساسية التي يرمي العثمانيون إلى تحقيقها، ألا وهي، استغلال المساحات الزراعية الضيقة، التي كانت بمثابة المصدر الوحيد لمعيشة السكان. وقد أدرك العثمانيون أن التحكم في هذا المصدر، سيرغم السكان على الخضوع للإدارة العثمانية. وبالرغم من هذه الخطة التي وضعها العثمانيون، إلا أنها لم تحقق الغاية المرجوة منها، إذ فضلت بعض القبائل السهلية، فرارا من دفع الضرائب، ترك المنطقة السهلية والاعتصام في المناطق الجبلية الوعرة المسالك. والجدير بالذكر، فإن بلاد الزواوة الغربية من الناحية الجغرافية، تنقسم إلى جزأين متباينين. يحتل الجزء الأول أو السفلي، المنطقة المنحصرة بين وادي يسر شرقا، وحوض سيباو غربا. فكانت هذه المنطقة خاضعة للإدارة العثمانية، التي تمكنت مع مرور الوقت، من تحويل معظم القبائل القاطنة بها، إلى قبائل مخزنية، والتي كانت مطالبة بتوفير جملة من الخدمات البشرية والمادية للعثمانيين أثناء قيامهم بالمحلات العسكرية في

<sup>24</sup> ) AUCAPITAINE : OP. CIT., P.280.

## إمارة كوكو

الأرياف لجمع الضرائب، وإخماد حركات التمرد<sup>(25)</sup>. أما الجزء الثاني أو العلوي، فإنه يشكل المنطقة الجبلية، التي يتواجد فيها العديد من القبائل. وقد ساعد الموقع الجغرافي سكان تلك القبائل على التمتع بالاستقلال النسبي عن الإدارة العثمانية، وهذا ما جعل العثمانيين (السلطة المركزية)، يشنون عدة حملات عسكرية ضدهم، إما لإخضاعهم، أو على الأقل إرغامهم على دفع ضريبة ضئيلة، التي تعد في نظر العثمانيين رمزا للتبعية والاعتراف بحكمهم.

وبالرغم من وجود الحاميات العسكرية في الأبراج المذكورة، فإنها لم تتمكن من إخضاع القبائل الجبلية، التي حفظت على تنظيماتها التقليدية، المتمثلة في "ثماعث" والقبيلة والعرش والقرية والتوفيق والخروبة والأسرة. فإن هذا التنظيم القبلي لم يتأثر عبر العصور التاريخية بالموثرات الخارجية<sup>(26)</sup>. وقد يرجع سبب عدم نجاعة الأبراج في تحقيق أهدافها، إلى عدد الأجناد الإنكشاريين المرابطين بها، إذ لم يكن عدد أفراد الحامية الواحدة في كل برج يتجاوز سفرتين، علما أن عدد الأجناد في السفرة الواحدة لم يكن يتجاوز عشرين نفرا. وبالرغم من اعتماد الحاميات في أداء مأموريتها على رجال قبائل المخزن، إلا أن الأبراج كانت تتعرض للتخريب في العديد من المناسبات. فكلما ثارت القبائل الجبلية، إلا وقامت بشن هجمات على تلك الأبراج. واستمر هذا الوضع إلى غاية عهد يحيى آغا في مطلع القرن التاسع عشر، الذي قام بترميم برج بوغني بعد أن خربته قبائل قشتولة<sup>(27)</sup>.

2 - إنشاء قبائل المخزن : إن قلة عدد الجند المرابطين في الأبراج العسكرية المقيمة ببلاد الزواوة، جعلت العثمانيين يضطرون إلى إنشاء قبائل مخزنية قصد تدعيم حامياتهم. ففي بداية توغلهم في حوض سيبوا، كانت قبائل يسر وبني عائشة وسيباو، تدفع الضرائب لبايات التيطري. فكانت مرغمة على توفير الخيول والبغال والفرسان. فلم يكن لبايات

<sup>25</sup> ) H. GENEVOIS : Légende des Rois de Koukou, N° 121, 1974, P.41.

<sup>26</sup> ) J.B. GRAMAYE : Alger XVIIe-XVIIIe siècles, présenté par A. Ben Manssour, éd. Du Cerf, Paris 1998, P.374.

<sup>27</sup> ) A. DEVOULX : Tacherifat, recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, Imp. Du gouvernement , Alger 1852, P.197.

## إمارة كوكو

التيطري في القرن السابع عشر مقرا ثابتا. فكانوا يقيمون تارة في مدينة المدينة، وتارة أخرى في يسر وسيباو. وكان عدد منهم يملك أملاكاً في حوض يسر، خاصة الأراضي الزراعية والأحواش. ويعد الباي محمد بن علي (1745-1754م)، من البايات الذين كانوا يتمتعون بأملاك كثيرة في حوض يسر وقورصو<sup>(28)</sup>. إلا أن شساعة بايلك التيطري الذي كان يضم أجزاء من جنوب البايك وبلاد الزواوة، قد صعب من مهمة البايات في تسييره والتحكم فيه. ويعد ذلك سببا كافيا لكي تتخذ السلطة المركزية قرار إعادة النظر في التقسيم الإداري الذي كان قائما منذ عهد حسن بن خير الدين في القرن السادس عشر. فقد حولت المناطق المذكورة إلى قيادات، وتم إلحاقها إداريا مباشرة بدار السلطان في عام 1775م، ووضعت تحت سلطة آغا العرب<sup>(29)</sup>. وقد اعتمد العثمانيون في إخضاعهم لأحواض بلاد الزواوة (يسر، وسيباو، وبوغني) على عدد من القبائل، لاسيما قبائل قشتولة التي كانت تشكل رعية حوض بوغني، وقبائل نزليواة في أعالي وادي يسر<sup>(30)</sup>.

كان رجال نزليواة يشكلون فرق الفرسان الخاضعة لقائد برج بوغني، إلا أن من الناحية الدينية، فإن قبائل نزليواة كانت تابعة لمرابطي تازروت، الذين كانوا يتكفلون بجمع الضرائب منها. أما من الناحية الإدارية، فإن السلطة كانت تعين على رأسها شيخين.

إن قبائل نزليواة لم تكن في الواقع خاضعة للعثمانيين بصفة نهائية. فقد ورد في الوثائق أنها كانت تنمرد من حين لآخر كلما أتاحت لها الفرصة، وهذا ما جعل العثمانيين يشنون ضدها حملات عسكرية. وكانت إحدى الحملات العنيفة، تلك التي تم تنفيذها في عام 1800م. فقد اضطرباي التيطري إلى شن حملة عسكرية قصد معاقبة قبائل نزليواة التي أقدم بعض أفرادها على نهب بعض المسافرين في منطقة بني عائشة. فكان العقاب شديدا، إذ قام الباي بقطع ثلاثين رأسا من رجال نزليواة. كما أرسلت حملة ثانية ضد نزليواة بقيادة يحيى آغا، الذي أعاد ترميم برج

<sup>28</sup> ) J.N. ROBIN : 0°. CIT., P. 139.

<sup>29</sup> ) AUCAPITAINE : OP. CIT., P.283.

<sup>30</sup> ) GUIN : « Les Nezzlioua », in R.A. N° 9 , Alger 1865, P.424.



## إمارة كوكو

بوغني بعد أن خربته قبائل قشتولة. وقد تمكن يحيى آغا من إخضاع قبائل نزليواة للإدارة العثمانية، وحولت إلى قبائل مخزنية. فأصبح رجالها يشكلون فرقة الزمالة التي أوكلت لها مأمورية تدعيم الحامية العثمانية المرابطة في برج بوغني، والمساهمة في إخماد حركات التمرد في المنطقة<sup>(31)</sup>.

وقد ورد في إحدى الرسائل التي وجهها الداوي حسين ( 1818-1830م) إلى يحيى آغا المتواجد في بلاد الزواوة أن قبائل نزليواة قد تحولت فعلا إلى قبائل مخزنية، إذ رافقت يحيى آغا في حملته على بني وقنون<sup>(32)</sup>. بعد أن تم إخضاع قبائل قشتولة للإدارة العثمانية، تمكن العثمانيون من فتح الطريق الرابط بين برج بوغني والطريق السلطاني (دار السلطان وبابك قسنطينة)، مرورا ببني هني. أما المنطقة الواقعة في أعالي سيباو، فإن العثمانيين قد استعانوا بقبائل حوض سيباو لتعميرها، بعد أن دعموها بفرق العبيد المستقدمة من عين الزاوية في ضواحي بوغني. وقد قام الباي محمد بن علي بنقل عدد من فرق الزمالة من عين الزاوية إلى حوض سيباو، فمنح لها أراضي زراعية بجوار أراضي قبائل عمراوة، وهكذا تم تشكيل فرق زمالة الكاف، المعروفة بعبيد شمال. ومع مرور الوقت، لعبت تلك الفرق دورا مهما في حوض سيباو، فقلصت نفوذ أمراء إمارة كوكو في المنطقة<sup>(33)</sup>.

عرفت بلاد الزواوة في عهد الباي محمد بن علي هجرة واسعة للعبيد الفارين والمعتقين والمغامرين، باحثين عن فرص العمل والاستفادة من الأراضي الزراعية والحرية. وقد جند الباي محمد عددا منهم ليدعم بهم صفوف فرق عبيد شمال. فكانت فرق العبيد مكلفة بمراقبة الطريق الرئيسي الذي كان العثمانيون يسلكونه أثناء تنقلهم من برج تيزي وزو إلى جمعة صهريج مرورا بمقلع<sup>(34)</sup>.

<sup>31</sup>) IBID.

<sup>32</sup>) وثائق عثمانية، "رسالة الداوي حسين إلى يحيى آغا"، محفوظات المكتبة الوطنية الجزائرية.

<sup>33</sup>) H. AUCAPITAINE : « Colonies noires en Kabylie », in R.A. N° 6, Alger 1862.

<sup>34</sup>) IBID.

## إمارة كوكو

نلاحظ أن العثمانيين قد تمكنوا في النصف الأول من القرن الثامن عشر من مد نفوذهم إلى معاقل إمارة كوكو. فكانت جمعة صهريج في الفترة المذكورة أحد مراكز السلطة لأحد فروع أسرة بختوش المنشق عن الأسرة القاضوية. وهذا ما يؤكد أيضا تراجع نفوذ إمارة كوكو في حوض سيباو وبعض الأجزاء من بلاد الزواوة. فأنحصر حكم إمارة كوكو في أواخر القرن الثامن عشر في المناطق الداخلية البعيدة نسبيا عن حوض سيباو حيث وجود الأراضي الزراعية الخصبة. وهذا ما يجعلنا نقول إن العثمانيين قد حققوا في نهاية الأمر بعض الأهداف التي خططوا لها منذ بداية وجودهم في الجزائر، وذلك بفضل السياسة المتبعة في بلاد الزواوة، والمتمثلة في تعمير المنطقة بعناصر أجنبية، وتشكيل قبائل المخزن وفرق الزمالة، والاستيلاء على الأراضي الزراعية التي تعد مورد الرزق الوحيد لسكان المنطقة.

3 - الحملات العسكرية : تعد الحملات العسكرية إحدى الوسائل التي وظفها العثمانيون خلال حكمهم للجزائر لإخضاع بلاد الزواوة. فكانت البداية بالحرب المندلعة بين خير الدين وأحمد بن القاضي مؤسس إمارة كوكو في أعالي جرجرة، والتي امتدت من عام 1520م إلى غاية مقتل أحمد بن القاضي في عام 1527م بثنية بني عائشة. ومن أعنف الحملات التي شنّها العثمانيون على بلاد الزواوة، تلك التي قادها باي التيطري محمد بن علي في عام 1754م<sup>(35)</sup>. وقد راح ضحية هذه الحملة عدد من الثائرين. فقد حقق الباي عدة انتصارات على حساب قبائل ذراع الميزان، ومعنقة، وآث دواله، وآث واسيف، وآث وقنون. إلا أنه عندما حاول إخضاع آث إيراثن، واجه مقاومة واستماتة السكان، فوقعت معركة حامية الوطيس في سفوح جبل آث إيراثن، أسفرت عن مقتل الباي وعدد من جنوده. والجدير بالذكر أن الأتراك العثمانيين لم يتمكنوا طوال فترة حكمهم من مد نفوذهم إلى منطقة آث إيراثن ومناطق أخرى الواقعة في أعالي جرجرة. وذكر روبان Robin، في هذا الصدد: "إن سكان جبال آث إيراثن المعروفين بالزواوة، كانوا يعيشون في استقلال تام. فكانوا

<sup>35</sup> ) AUCAPITAINE : OP. CIT., P. 288.

## إمارة كوكو

يعينون شيوخهم، ولم يدفعوا أية ضريبة، ما عدا أولئك الأفراد الذين كانوا يحترثون أراضيهم في حوض سيباو<sup>36</sup>. وهذا دليل على أن الإدارة العثمانية المتمثلة في فرق العبيد وقبائل المخزن، قد فرضت قبضتها على حوض سيباو. وهذا ما يؤكد أيضا أن سلطة إمارة كوكو قد تراجعت في منطقة حوض سيباو لحساب الإدارة العثمانية.

بعد الانتصار الذي حققه آث إيراثن على قوات الباي، توجه الشيخ أعراب أحد قادة الدينيين لآث إيراثن إلى مدينة الجزائر، فقد وعد الداوي بأن آث إيراثن من هنا فصاعدا، لا يتعرضون للحاميات العثمانية المرابطة في حوض سيباو، والأسواق التي كانت تتردد عليها، وكذا مناطق تمركزها، لاسيما مقلع وتامدة وجمعة الصهريج. وفي المقابل اشترط الشيخ أعراب من الداوي بأن لا تضايق فرق المخزن سكان آث إيراثن أثناء حرث أراضيهم في حوض سيباو، ولا تعترض سبيلهم أثناء تسوقهم إلى سوق علي خوجة.

وما يمكن استخلاصه من هذا العرض، هو أن سلطة إمارة كوكو قد اختفت أو على الأقل تقلص نفوذها في عام 1754م، تاريخ وقوع الأحداث المذكورة، والدليل على ذلك أنه لم يرد ذكر دور الإمارة في المعركة، ولا في المفاوضات التي تمت بين الجهة المنتصرة والسلطة المركزية. فالشيخ أعراب هو المفوض الرسمي لآث إيراثن لدى الداوي، وهذا يعني أيضا أن منطقة آث إيراثن قد استقلت عن سلطة الإمارة، بعدما كانت في فترة من الفترات جزءا رئيسيا فيها. فكانت فناية وعدي الواقعتان في آث إيراثن في وقت من الأوقات، مراكز قيادة كوكو. وقد ذكر هانوتو Hanoteau، أثناء تطرقه للعلاقات بين العثمانيين وآث إيراثن، قائلا: "إن آث إيراثن كانوا يدفعون الضرائب لقائد تيزي وزو ما قدره 125 فركا. وكان عدد السكان يقرب 17000 نسمة. وفي المقابل كان القائد يوم دفع الضرائب، يمنح لأعيان الأعراس هدايا المتمثلة في الملابس، والأسلحة، والتي كانت قيمتها تفوق مرتين قيمة الضرائب المدفوعة. وكان عدد كبير من القبائل الجبلية لا تدفع شيئا"

<sup>36</sup>) N. ROBIN : OP. CIT., P.18.

## إمارة كوكو

(37). وهنا أيضا نلاحظ أن قبائل آث إيراثن كانت تتعامل مع الإدارة العثمانية مباشرة عن طريق أعيانها، وليس عن طريق أمراء كوكو. وبالرغم من الهزيمة التي مني بها العثمانيون في عهد الباي محمد بن علي، فإن حملاتهم على بلاد الزواوة لم تتوقف، إذ كلما أتاحت لهم الفرصة، إلا وشنوا ضدها حملة. ونذكر بالأخص الحملة التي تم تنفيذها في عهد الداوي محمد بن عثمان ( 1766-1791م)، في عام 1767م ضد قبائل فليسة أمليل الثائرة. وقد جندت السلطة المركزية العثمانية لهذه الحملة 11 ألف رجل، الذين وضعوا تحت قيادة الآغا. ورغم أهمية هذه الحملة من حيث العدد والعدة، فإنها منيت بهزيمة مثل سابقتها، فاضطر الداوي إلى قتل الآغا بعد أن حمله مسؤولية الهزيمة. وقيل إن الآغا انسحب من ساحة المعركة وترك قواتها تقاتل دون قائد. وفي العام الموالي، نظم الداوي حملة ثانية، وأوكل قيادتها لصالح، باي قسنطينة، بمساعدة باي التيطري. ولكن رغم التجنيد الواسع والحشد الكبير للقوات العسكرية، فإن الحملة منيت هي الأخرى بهزيمة. فقد قدر عدد الضحايا في صفوف الفرق النظامية بـ 1200 ضحية، في حين بلغ عدد ضحايا الثائرين ثلاثة آلاف ضحية. وبعد هذه الهزائم المتتالية، اضطر الداوي إلى استعمال الأسلوب الدبلوماسي مع قبائل فليسة، إلا أنه فشل أيضا في مساعيه. فقد حفز الانتصار الذي حققته قبائل فليسة بعض القبائل في بلاد الزواوة وغيرها من المناطق الداخلية، على التمرد ضد العثمانيين.

إن الحروب بين فليسة والعثمانيين قد تجددت في عهد الداوي أحمد (1805-1808م)، إذ استغلت قبائل فليسة انشغال الداوي بإعداد حملة ضد تونس لتعلن الحرب على العثمانيين. فقرر الداوي إثر ذلك أن يقود الحملة بنفسه ضد فليسة، ولكنه تمكن بفضل دبلوماسيته وحكته تجنب تلك الحرب المعلنة. وقد نجح الداوي في كسب ود فليسة وتحالفها معه. إلا أن هذا التحالف كان ظرفيا، إذ ثارت قبائل فليسة من جديد في عام 1814م.

<sup>37</sup> ) HANOTEAU ET LETOURNEUX : La Kabylie et les coutumes Kabyles, Imp. Nationale, Paris 1873, 3T. T.2, P.38.

## إمارة كوكو

ومهما كانت طبيعة الصراع بين فليسة والعثمانيين، فإن الطرفين توصلا في النهاية إلى عقد هدنة، التي نص أحد بنودها على إعفاء قبائل فليسة من دفع الضرائب المخزنية، وتكتفي بدفع ضريبة سنوية قيمتها خمسمائة ريال بوجو. وهكذا تم احترام الهدنة الموقعة بين الطرفين إلى تاريخ نهاية الحكم العثماني في الجزائر في عام 1830م.

بعد هذا العرض، يمكن استخلاص بعض النتائج، منها:

- أن الوجود العثماني في الجزائر كان يعد عائقا أمام أمراء كوكو لتوسيع الرقعة الجغرافية لإمارتهم. كما أن سيطرة العثمانيين على الشريط الساحلي لبلاد الزواوة، قد حال دون تمكن الإمارة من ربط علاقات مع العالم الخارجي، وهذا ما جعلها من الناحية الاقتصادية تكتفي بما كانت تجود به المنطقة. كما أن الحصار الذي فرض عليها قد حرّمها من التطور، فاحتفظت بنظمها الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التقليدية. وقد تسبب ذلك في إحداث خلا بين موازن القوى. فالعثمانيون كانوا يستمدون قوتهم من المناطق الجزائرية المختلفة التي دخلت تحت حكمهم، ومن الدولة العثمانية، التي كانت تمدّهم بالرجال والعتاد، ومن العالم الخارجي الذين كانوا يتعاملون معه. أما أمراء كوكو، فقد اكتفوا بالشيء القليل الموجود محليا.

- أن تخاذل سكان مدينة الجزائر وانقلابهم ضد ابن القاضي، ودعمهم لخير الدين، كان من العوامل التي رجحت الكفة لصالح العثمانيين في استرجاع مدينة الجزائر.

- أن خير الدين قد نجح في استغلال الخلافات الموجودة بين الإماراتين، فاستمال إلى صفه أمراء بني عباس، الذين قدموا له الدعم الضروري في حربه ضد ابن القاضي.

- أن ضعف الإمارة وزوالها، كان نتيجة لجملة من العوامل الداخلية، منها: الصراعات العائلية، والسياسة الجائرة، التي اتبعتها بعض الحكام في المناطق الخاضعة لهم. وقد نتج عن ذلك أن ثار السكان ضدهم، ورفعوا لواء العصيان ضدهم بالتحريض من رجال الزوايا.

- أن تعامل أمراء كوكو مع العثمانيين ومصاهرة لهم، دفع بعض الأعراس المعادية للعثمانيين، إلى التخلي عنهم.

## إمارة كوكو

- أن بعض أمراء كوكو قد استعانوا في صراعاتهم العائلية على العرش بالعثمانيين، وتلقوا منهم الدعم المادي والعسكري. وهكذا تلاشت فكرة تأسيس الدولة التي حارب من أجلها الأجداد.  
- أن العثمانيين تمكنوا رغم طول المدة من تحقيق مشاريعهم في بلاد الزواوة، والتي خططوا لها منذ بداية وجودهم في الجزائر.

### قائمة المصادر والمراجع:

- مذكرات خير الدين، ترجمة محمد دراج، دار الأصاله للنشر، الجزائر 2010.
- المجهول : غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتقديم، نور الدين عبد القادر، مطبعة الثعالبية، الجزائر 1934.
- ساحي، أحمد : بلاد الزواوة من القرن 16 حتى 18 ، عهد الإمارة ، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 1999.
- التميمي، عبد الجليل : " أول رسالة من أهالي الجزائر إلى السلطان العثماني سليم الأولى 1519"، في المجلة التاريخية المغربية، العدد 6، تونس 1976.
- الوثائق العثمانية ، " رسالة الداوي حسين إلى يحيى آغا في بلاد الزواوة"، ووثائق المكتبة الوطنية الجزائرية. « AUCAPITAINE, (H) : Notices sur L'Histoire et L'administration du Beylik de Titeri », in R.A. N° 9, Alger 1865
- AUCAPITAINE, (H.): « Les colonies noires en Kabylie », in R.A. N° 6, Alger 1862.
- BOULIFA, (S.): Le Djurdjura à travers l'Histoire, Berti éd. Alger, S.D.
- BIBESCO : « Les Kabyles du Djurdjura, La société Kabyle avant la conquête », in R.M. Imp. J. Chaye, année 1859.

**DEVOULX, (A.)** : « Tacherifate, recueil de notes Historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, Imp. Du Gouvernement, Alger 1852.

**GENVOIS, (H.)** : Légende de Rois de Koukou, N° 121, 1974.

**GRAMAYE, (J.B.)** : Alger au XVI-XVIIe siècles, présenté par A. Ben Manssour, éd. Du Cerf, Paris 1998.

**GUIN** : « Les Nezlioua », in R.A. N° 9, ALGER 1865.

**HANOTEAU ET LETOURNEAU** : La Kabylie et les coutumes kabyles, Imp. Nationale, Paris 1873.

**MERCIER, (E.)** : Histoire de Constantine.

**ROBIN, (N.J.)** : « Notes sur l'organisation militaire et administrative des Turcs dans la Grande Kabylie », in R.A. N° 20, Alger 1870.

# فعاليات

الملتقى الدولي حول  
ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي  
بسكرة، أيام 01 و02 ديسمبر 2010





## الفهرس

- الكلمة الإفتتاحية  
السيد: مسعود جاري  
والي ولاية بسكرة  
35
- إشكالية الملتقى  
حميد بيلاك  
مدير فرعي مكلف بالتراث  
39
- ملخصات  
43
- الوجود الحضاري في أوجهه السياسية و الإجتماعية  
و الثقافية و العلاقاتية قبل الفترة الإسلامية  
الأستاذ: خدام محند أوبلقاسم  
باحث في التاريخ  
59
- التوبونيميا الأمازيغية في مناطق بسكرة وسوف ووادي ريغ  
د. العربي عقون  
جامعة منتوري – قسنطينة  
93
- أول نواة لدولة بربرية في العهد الإسلامي: «كسيلة في القيروان»  
زواتي إبتسام  
باحثة في التاريخ-منوبة تونس  
105

الخوارج و علاقتهم بالأمازيغ خلال القرن الثاني الهجري،  
الثامن الميلادي

أوعثماني ستار  
دكتور في التاريخ جامعة بجاية  
123

شمال إفريقيا والتحولات السياسية الكبرى  
في القرون الوسطى

محمد الصالح ونيسي  
باحث في التاريخ  
133

صفات القائد السياسي العسكري في دولة المرابطين الأمازيغية  
الإسلامية "عبد الله بن ياسين أنموذجاً"

الأمير بوغدادة  
أستاذ مساعد جامعة محمد خيضر بسكرة  
143

بعض الجوانب من الحياة الثقافية في الدولة الزيانية

عزيز نعمان  
جامعة مولود معمري-تيزي وزو  
149

دور القوى المحلية في الجزائر في ظل الحكم العثماني

الدكتور أرزقي شويتام  
أستاذ محاضر جامعة الجزائر  
155

## الكلمة الافتتاحية للملتقى

السيد مسعود جاري  
والي ولاية بسكرة

بسم الله الرحمن الرحيم و الصلاة و السلام على سيد المرسلين  
السيد/ رئيس الملتقى  
السيد / رئيس المجلس الشعبي الولائي  
السيد / مدير الترقية الثقافية بالمحافظة السامية للأمازيغية  
السادة / النواب في الغرفتين  
السادة / الإطارات و المنتخبون المحليون  
السادة / الأساتذة الأفاضل و الضيوف الكرام  
السادة / أعضاء الأسرة الإعلامية  
سيداتى سادتي  
السلام عليكم و رحمة الله تعالى و بركاته

يغمرني سرور بالغ ، و سعادة كبيرة ، و ولايتنا تتشرف  
باستضافة ، هاته الوجوه الكريمة و هاته النخبة الطيبة من الأساتذة  
الأفاضل الذين قادتهم إلى ولاية بسكرة رسالة الواجب و مسؤولية  
التاريخ فحلوا بين أهلهم و ذويهم مكرمين معززين و كلنا أمل أن يكون  
مقامهم بيننا طيب و نزلهم عندنا مباركا ميمونا و أن يكون هذا الملتقى  
فرصة سانحة لنستفيد من معارفهم و ننهل من ينابيعهم و نسترشد  
بتوصياتهم، كيف لا و هي فرصة تستوقفنا عند محطات هامة من تاريخنا  
المجيد و حضارتنا العريقة.  
أيها السادة الأفاضل:

أتقدم بخالص الشكر و التقدير للمحافظة السامية للأمازيغية على  
إختيار ولايتنا لإحتضان هذا الملتقى حول موضوع ممالك الأمازيغ في  
العهد الإسلامي الذي يضاف إلى صفحات سجلها التاريخي.

فأصالة عن نفسي و نيابة عن سكان الولاية، أرحب بضيوفنا الكرام في ولاية بسكرة ، مواطن الكرم و العلم و التاريخ ، نرحب بكم لأنكم ببسكرة ستجدون رغبتكم ، و تحققون مرادكم ، ففي ربوعها سنتصفحون كتاب التاريخ ، و وتنهلون من صفحاته الثرية بإحداث مهمة، كان لها الأثر العظيم على تاريخ شمال إفريقيا ، و تقفون عند آثار عظيمة ، ما تزال شاهدة لن تندثر ، و تتعرفون على رجالها الذين كان لهم دور في مجالات السياسية و الإجتماع الثقافية و الدين.

فإن تسليط الأضواء على هذه الحقبة التاريخية يعتبر بمثابة إستقرار الذاكرة لتعزير ثوابت الأمة و توطيد العلاقة و التواصل و الإنسجام بين الأجيال أسسها مرجعية ثابتة لا تتحرف.

السادة الحضور :

إن موضوع هذا الملتقى العلمي التاريخي ، الذي سيسعى السادة الأساتذة الأفاضل ، من خلاله رفع الستار على حقبات هامة من تاريخ الجزائر و شمال إفريقيا و الأندلس ، التي عرفت حكم هذه الممالك و الإمارات ، و توضيح حقائقها للأجيال ، ليتعرفوا على تاريخهم و شواهد الخالدة التي لا تندثر ، و على عظمائه الذين صنعوا الملامح ، وقادوا مملكات ، و أبدعوا في مجالات العلم و الثقافة و الفنون ، حتى أصبحوا منارات لأمم و شعوب ، مازلت تستفيد من إبداعهم و تراثهم ، المحفوظ في مكتباتهم الوطنية ، و المعروض في متاحفهم.

إن التراث السياسي و الإجتماعي و الثقافي و العلمي و الجهادي لهذه الممالك ثري ، و بحاجة لبحث معمق ، و دراسة علمية دقيقة ، للحفاظ على ذاكرة أجيالنا ، فمهمتمكم نبيلة ، و رسالتكم جلييلة ، لتحافظوا على ثوابت الأمة و ضمان التواصل بين الأجيال ، فهذا الجيل سيبنى مستقبله معتزاً بعظمة ماضيه ، ومفتخراً بالصور الرائعة لرقيه وتماسك نسيجه الإجتماعي و الثقافي.

و لا يتنكر للمرجعية العمق الحضاري للجزائر، و هو ينتظر من هذا الملتقى أن ينقل له تلك الوقائع من مجرد أحداث ، إلى صورة

## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

مستقبلية حية ، يستلهم من عبرها ، ليصنع حضرا يرقى لمستوى تحديات العصر في جميع المجالات التي تخدم المجتمع. وفي الأخير ، أتمنى النجاح لهذا الملتقى ، و تتويجه بتوصيات ترقى لمستوى عظمة هذه الممالك التي رصعت إسم الجزائر ، في صفحات المجد و الخلود.

و أجدد لكم و لضيوفنا الكرام ، أسمى عبارات التقدير و الترحاب ، على هذه الولاية التاريخية المضيافة ، و أتمنى لكم إقامة طيبة بين أهليكم و ذويكم.

و أشكر الجميع على حسن الإنتباه و كرم الإصغاء و أعلن رسميا عن إفتتاح ملتقى ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي. و السلام عليكم و رحمة الله تعالى و بركاته.



## إشكالية الملتقى

حميد بيلاك

مدير فرعي/المحافظة السامية للأمازيغية

يرجع تاريخ ممالك الأمازيغ إلى جذور الوجود البربري، فأولى هذه الممالك المعروفة برزت مع أولى بوادر علاقات الأمازيغ مع جيرانهم الفراعنة في مصر، تلك العلاقات التي تميزت بالاستقرار أحيانا و التوتر في أغلب الفترات. فالآثار و النصوص التاريخية تدلنا على تطور و ازدهار ممالك أمازيغية على ضفاف النيل، نذكر منها على سبيل المثال، مملكة هيراكليوبوليس تحت حكم شاشناق الأول، مؤسس الأسرة الفرعونية الثانية و العشرون. إذ منذ تلك الحقبة إلى يومنا هذا توالت الأحداث و ظهرت إلى الوجود ممالك اخرى إستقرت على الوطن الأم، شمال إفريقيا، آخرها كانت مملكة كوكو في بلاد القبائل، و أخرى زالت مع زوال الحكام و إندثرت علاماتها الأثرية.

كبريات هذه الممالك تبقى راسخة على صفحات التاريخ، تطرقت إليها العديد من الدراسات و الأبحاث، على غرار ممالك ماسينيسا، سيفاكس و يوبا الثاني التي تطورت في العصر القديم، أما أضعفها فقد زالت، لم يبقى سوى أسماؤها لندرة الأبحاث عليها، أو تم تجاهلها لإعتبارات أخرى. نعني بهذه الفئة تلك التي تأسست خلال الفترة الإسلامية، التي وصفها محفوظ قداش بالعصر الذهبي في تاريخ الجزائر، و التي تزامن مع عصر القرون الوسطى في أوروبا. بحيث تميزت هذه الفترة بالترقي الثقافي، الحضاري و السياسي و تعدت أثاره إلى خارج الوطن و كتبت صفحات كاملة من تاريخ بلدان حوض المتوسط.

إن التأمل في الإرث التاريخي لهذه الممالك، القوية منها كـممالك الموحدين و المرابطين، أو الصغيرة منها كـممالك عبد الودود، الحفصيين و المرينين يذكرنا بأنها ساهمت في وضع لبنة شخصيتنا و



## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

هويتنا الأمر الذي يستوقفنا للبحث و التعمق أكثر في هذه الحقبة الهامة من تاريخنا المشترك، لاسيما و أنها شهدت بروز مثقفين و قادة جيوش، أسسوا لحضارات و دافعوا عنها، ساهموا في التطور و الرقي الثقافي و قادوا جيوش الفتوحات خارج شمال إفريقيا. نذكر من بينهم طارق ابن زياد، ابن تومرث، عبد المؤمن، يوسف بن تاشفين... و غيرهم.

إن البحث عن الحقيقة التاريخية، بدون حذف أو تحريف، هي

غاية كل الشعوب بينما تجاهل أي فترة من فتراته سيحرم أجيال الحاضر و المستقبل من التعرف على ذاته و هويته، و سيولد نوعا من الفوضى و تداخل في مفاهيم البحث عن الماضي المشترك. من ثمة يتضح إذن أن تنظيم ملتقى حول هذه المسألة يكتسي أهمية بالغة، مما سيسمح لنا بتصفح صفحات كاملة من تاريخنا الحافل بالأحداث و الوقوف عند أهم محطاته و إعادة ترتيبها في سلم تسلسل الذاكرة الجماعية.

لبلوغ هذه الغاية السامية، يتأتى على كل واحد منا، الخضوع الى منهجية علمية و موضوعية من شأنها تحرير العقول من غياهب الجهل و التاريخ المزيف، التي تفتك بعلاقات الشعوب و المجموعات البشرية. فليساهم كل واحد منا بمقترحاته لوضع أسس لتعايش سلمي و الذهاب قدما إلى غد أفضل.

### محاوَر البحث الخاصة بالملتقى

نبذة تاريخية حول ممالك الأمازيغ قبل الإسلام

أكبر ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

تنظيمها السياسي و الإداري

أكبر الوجوه التاريخية: المؤسسين، المفكرين، الحكام و المدافعين.

مكانة اللغة و الثقافة الأمازيغية عند هذه الممالك.

# الملخصات



## الموجود الحضاري الأمازيغي في أوجهه السياسية والاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية و العلاقاتية قبل الفترة الإسلامية.

خدام محمد أوبلقاسم  
باحث في التاريخ

الملخص:

إليكم أهم الأفكار التي وردت في هذه المحاضرة:  
تعود حضارة الشعب الأمازيغي إلى العصر البرونزي.  
الشعب الأمازيغي أمة عظيمة في كثافة سكانها و منجزاتها.  
العلاقات السياسية و الثقافية و الحربية مع الفراعنة المصريين تعود إلى  
الأسرة الأولى و إستمرت بدون إنقطاع من الألفية الثالثة قبل الميلاد إلى  
القرن التاسع عشر (19) بعد الميلاد.

-أقام الأمازيغ علاقات كبيرة و مستمرة مع الإغريق و الإيجيين و  
القرطاجيين و الرومان و الوندال و البيزنطيين بدون إنقطاع حتى دخول  
الإسلام. كل هذه العلاقات تمت على قدم المساواة بين دول تمثل شعوبها.  
-بالنسبة للعلاقات مع الفراعنة يذكر بعض المؤرخين أن قدم و تواصل و  
قوة هذه العلاقات أدت إلى تكوين إتحاد فيديرالي مع الأمازيغ.  
-العلاقات مع المصريين القدامى و القرطاجيين تمخضت عن المصاهرة  
مع الامازيغ في الاتجاهين: تزوج الأمازيغ مع المصريات و  
القرطاجيات و العكس.

-التعرض بإختصار لبعض الممالك الكبيرة التي أنشأها صيفاكس و  
ماسينيسا.

-ذكر الأمانة الثمانية (08) التي عرفت خلال الفترة الوندالية البيزنطية.  
\*التعرض لبعض المظاهر السياسية للدول الأمازيغية: الحدود السياسية  
للممالك-الجيوش البرية و البحرية-العلم-العملة-الشعار- الرموز-اللغة-  
الثقافة-القيم-التمثيل الدبلوماسي-الوحدة الوطنية-الخزينة.

## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

\*النظام الإجتماعي: المجتمع مهيكّل-الأسرة- القبيلة-إتحاد القبائل – الدولة- العادات و التقاليد واللغة المشتركة- التعاون ضد الغزات- التعاون في الإنجازات- الطاعة للحكام العادليين- الثورة على الاليمين- نظام الحكم جمهوري من القبيلة إلى الدولة- وجود ضمير جمعي قوي عزز الشخصية المتميزة للأمازيغ

\*المظاهر الحضارية البارزة للمجتمع الامازيغي:

-هناك قسمان من السكان: البدو و الحضر المستقرون.  
-عرف الأمازيغ المستقرين نظام المدن و الحياة فيها منط إتصاليهم بالإغريق و المصريين ثم القرطاجيين ثم الرومان.  
-بنى الامازيغ قلاع خاصة على الحدود-بنوا المدن بالعشرات و هي ذات نمط أمازيغي محلي. كما ظموا من قرطاجية ثم رومانية.  
-عرفوا و هم يسكنون المدن نظام تزويد المدن بالمياه ثم الصرف.  
-أُتسمت مدنهم بكل ما أُتسمت به المدن القرطاجية ثم الرومانية: فيها ميادين للفروسية، حدائق، مسارج، الرسم، فن الغناء و الرقص و الرقص و التمثيل و الخياطة، ألعاب مختلفة، ألبسة محلية و مستوردة، فنون التجميل، العطور، دور العبادة، و المدارس...إلخ.

-في العصر الروماني هناك نسبة من الأمازيغ سكنوا المدن و هم الأغلبية فيها ترومنوا ثقافيا و لكنهم لم ينسلخوا عن أصلهم و من هؤلاء تكونت طبقة من المثقفين الكبار، باللغة اليونانية و اللاتينية و بزوا فيها اهلهما. منهم على سبيل المثال لا الحصر: Tertullium, Apulée

.Augustin, Cyprien, Donat, Optat,

-قراءة بعض النصوص الوثائقية القصيرة المأخوذة من أقوالهم.  
\*الثورات: نكتفي بذكر بعضها بإختصار: ثورة يوغورطا-تكفاريناس- فرموس- جلدون- و الثورة المشهورة جدا( ثورة الدوارين)، اللتي قال عنها المؤرخون أنها أشهر ثورة في العالم القديم من حيث المبادئ و الشمولية و الهادفية و الاثر الإيجابي و الوطنية الصادقة.  
ملاحظة: كل هذه الافكار الواردة في المحاضرة معززة بإستشهادات أوردها مؤرخون ذوا مصداقية لا يشك فيها

## التبونيما الأمازيغية (مناطق بسكرة وسوف ووادي ريغ)

د. العربي عقون  
جامعة منتوري (قسنطينة)

### الملخص:

كما هو معروف فإن اسم المكان يحمل هوية المكان، ويعرّف بهوية ساكنة المكان، والملاحظ في أسماء الأماكن التي لا تزال منطقتنا بسكرة ووادي ريغ تحتفظ بها هو أنها أسماء في أغلبها أمازيغية، لم ينل منها التحريف ولم تمتد إليها "الترجمة" التي عرفتها جهات أخرى من الشمال الأفريقي.

وتندرج مداخلتنا هذه في إطار لفت الانتباه إلى أهمية الدراسات المتعلقة بأسماء الأماكن (Toponymie) والحثّ على الاحتفاظ بتلك الأسماء ولو على صعيد التدوين والتوثيق، خاصة ونحن نشهد منذ أمد بعيد الاتجاه إلى ترجمة هذه الأسماء إلى لغات أخرى (وهو ما أسميناه ترجمة ما لا يُترجم) مما يترتب عنه طمس عنصر بارز يمثل شواهد تاريخية لا ينبغي بأيّ حال التفريط فيها.

هذه الأسماء القادمة من أعماق التاريخ تدلّ بما لا يدع مجالاً للشكّ بأنّ المنطقة كانت عامرة أهلة بالسكانة الأمازيغية منذ الأزل، لا كما يقول قوتيي (Emile Félix GAUTIER) : "إنّ دخول الأمازيغ إلى المناطق الصحراوية مرتبط بظهور الجمل" أو كما قال بالحرف : "دخل الأول (الجمل) يحمل الثاني (البربري)" في إشارة منه إلى أنّ الجمل تأخّر ظهوره وأنّ "نزوح البربر إلى الصحراء" كان في وقت متأخّر بسبب تأخّر ظهور الجمل !! .

لا ريب أنّ قوتيي وغيره كانوا يؤسسون على مدى مخطّط له لعزل جنوبنا الكبير عن الشمال ليس فقط لأغراض اقتصادية - بعد أن

## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

كشفت التنقيبات عن ثرواته الباطنية - ولكن أيضا لأغراض ثقافية حضارية بعد أن كشفت الأبحاث الأثرية عن حضارة التاسيلي التليدة. المنطقة محلّ ورقتنا هي وطن الجيتول ( Gaetulii = Gétules ) في التاريخ القديم وهي وطن زناتة التي خلفت الجيتول، بل يمكن أن تكون زناتة هي تسمية جديدة "رُوج لها خلال القرون الوسطى" لذات الشعب الجيتولي، الذي هو أحد شعوب الأمازيغ التاريخية التي كانت تعيش حياة البداوة بذات التقاليد التي لا تزال عند أحفادها من القبائل البدوية التي ظلت إلى عهد قريب تنتجع في هذه المناطق قبل أن تحدّ التحولات الاجتماعية الاقتصادية الحديثة من نشاطها.

في هذه الورقة سنقدّم تحليلا ألسنيا اشتقاقيا لعدد من أسماء الأماكن الأمازيغية في المناطق الثلاث : بسكرة ، سوف ، وادي ريغ . وهي كما لاحظنا أسماء لافتة للانتباه ولأنها محلّ تساؤلات الأجيال الحديثة المنقطعة بكلّ أسف عن تراثها وتاريخها فإننا سنحاول الإجابة على هذه التساؤلات.

## أول نواة لدولة بربرية في العهد الإسلامي: كسيلة في القيروان.

زواتي إبتسام  
منوبة- تونس

### الملخص:

كسيلة أو كسيلة هو من أشهر الشخصيات المغربية التي جسدت رمز الصراع البربري ضد الفاتحين العرب. عند دخول الفاتح المولى أبو المهاجر دينار سنة 55هـ/674م إلى منطقة إفريقية والمغرب، وجد كسيلة على رأس مملكة شاسعة عاصمتها تلمسان. فقد كان ملكا على أوربة، وهو حلف من قبائل البرانس الذين كان معظمهم من الحضر المستقرين. فحاربه، وانتصر عليه بفضل اعتماده على سياسة حازمة ولينة هدفت إلى كسب ولائه، وهي سياسة نجحت في استمالاته لاعتناق دين الإسلام بعد كان مترومنا أو مسيحيا.

وقد جسدت علاقة كسيلة مع أبي المهاجر دينار علامة من علامات التحالف العربي- البربري. فقد جمعت بين الشخصيتين علاقة صداقة، ومرافقة دائمة حيث ترك كسيلة تلمسان، واستقر مع أبي المهاجر في عاصمته تيكروان، التي أنشأها، بعيدا عن القيروان العاصمة التي أسسها سلفه الفاتح العربي القرشي الأصل عقبة ابن نافع سنة 50هـ/670هـ.

سنة 62هـ/681م استرد عقبة بن نافع منصبه بإفريقية، فرد الناس إلى القيروان. وسعى إلى الانتقام من أبي المهاجر دينار الذي أساء عزله قبل ذلك، فألقى به وحليفه كسيلة في الأغلال. وأخذهما معه في طريق تقدّمه السريع في البلاد وصولا إلى البحر المحيط، متبعا سياسة عنيفة في إخضاع البربر. ولم يتوان عن إهانة كسيلة بجعله يسلم شاة في حضرة ملأ من العرب والبربر.

تمكّن كسيلة بعد مدّة من الفرار من قيود عقبة، فجمع عددا كبيرا من البربر والرّوم وتزعم المقاومة ضدّ العرب. ونجح في قتل عقبة



بتهودة، وهي حادثة مشهودة جعلت من عقبة رمزا قدسيا. واتخذ كسيلة بعد ذلك طريقه إلى القيروان صحبة جيوشه الغفيرة، وهو نبأ أشاع الرعب في قلوب المستقرين بها، وخاصة القائمين على أمنها من قادة الجيش العربي، الذين دار بينهم نقاش انتهى بقرار الانسحاب من القيروان وإخلائها واتخاذ طريق المشرق.

ولكن القيروان لم يفارقها جميع سكانها فقد بقي بها بعض المسلمين من العرب والبربر. وقد ذكرت النصوص أن كسيلة دخلها صلحا بعد أن آمن من بقي بها، وتقول أنه لم يمارس ضدهم أي نوع من الاضطهاد أو الإقصاء. واتخذها عاصمة لدولته الجديدة التي امتدت على الجانب الشرقي لبلاد المغرب، وذلك من سنة 64 إلى 69 هـ/683-688م. وهي دولة مسلمة لأن النصوص لا تذكر أن كسيلة ارتدّ عن الإسلام. وربما محافظته على الإسلام دليل على شدة وعيه بأهداف العرب، وبالتالي القضاء على أي صيغة شرعية يستعملها العرب كمطية لتبرير وجودهم بالمنطقة.

ونحن في هذه المداخلة سنحاول التركيز على هذا الحدث البربري، الذي سكتت النصوص عن تقديم أية تفاصيل حوله، بل سعت إلى طمسه وتصغيره. مقابل التركيز على حادثة مقتل عقبة بن نافع التي كانت سببا في تقديم صورة قاتمة عن كسيلة. فلم يكن من السهل على الأرستقراطية العربية أن تعترف بانكسار "الأنا" العربي المتعالي الغالب، أمام "الأخر" البربري المغلوب، الذي تمكن من تحقيق استقلاله المحلي، وأرسى أول نواة لدولة محلية بربرية في العهد الإسلامي

## شمال أفريقيا والتحولات السياسية الكبرى في القرون الوسطى

محمد الصالح أونيسي  
باحث في التاريخ و الآثار.

### الملخص

إن التحولات الكبرى التي حدثت في شمال أفريقيا ابتداء من منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، و المتمثلة في دخول القبائل البدوية العربية في شمال أفريقيا، ظلت مجهولة من قبل الجمهور، إن لم تكن من الطابوهات. كما ظل المؤرخون الجزائريون يتحاشون الخوض فيها والتطرق لها في مداخلاتهم وكتابتهم. مع أن هذه التحولات تعتبر نقطة ارتكاز لكل دراسة جديدة لتاريخ شمال أفريقيا المعاصر. ولا يمكن بدونها فهم واستيعاب التغيرات الأخرى التي حدثت بعد هذا التاريخ. وإذا أردنا أن نعيد كتابة التاريخ الجزائري بموضوعية ونزاهة، علينا التركيز على هذا الحدث التاريخي الهام وإيلاؤه العناية و الاهتمام اللازمين بدون تشنج.

فدخول القبائل البدوية العربية - هلال وسليم- سنة 1051م لشمال أفريقيا، لم ينتج عنه تغيير ديموغرافي ذو شأن في تركيبة الساكنة البربرية الأصيلة، وإنما نتج عنه تغير سياسي ولغوي يتمثل في انقلاب الموازين القبلية القديمة التي كانت تتميز بتغلب الصنهاجيين على الزناتيين سياسيا وعسكريا. واستغل الزناتيون وجود العرب البدو لقلب الميزان لصالحهم. وهكذا ساعدت زناتة العرب البدو للقضاء على الدولتين الصنهاجيتين: الدولة الزيرية بتونس، والدولة الحمادية ببجاية للتأسيس لدولتين زناتيتين في تلمسان وفاس.

## جوانب من الحياة الاقتصادية في الدولة الحمادية

أيت مدور محمود

أستاذ مساعد في قسم التاريخ. جامعة قالمة

### الملخص:

تعتبر الدولة الحمادية من أهم الدول البربرية التي تركت بصمات واضحة في تاريخ المنطقة والتي بدأت منذ وقوع الخلافات بين حماد وابن أخيه باديس وبناء القلعة بتاريخ 1007 ميلادي الموافق ل398 هجري إلى غاية سقوطها في أيدي الموحدون في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. وسوف نتناول في هذا العرض الموجز بعض جوانب الحياة الاقتصادية وهي العملة والمالية والتنظيم الزراعي والصناعة والتجارة.

**1- العملة:** خلال الفترة الفاطمية، كان سلاطين المهديّة والقلعة يضربون باسم الخلفاء الفاطميين. وعندما انفصلوا عنهم، أصبحوا يضربون النقود باسم الخلفاء العباسيين ثم بأسمائهم الخاصة.

أدى الغزو الهلالي إلى زعزعة الحالة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لذلك لم يعد الذهب يصل من السودان الغربي بسبب حالة اللأمن التي تسود أرجاء البلاد مما جعل السلاطين يلجؤون إلى الفضة من أجل ضرب نقودهم.

**2- المالية:** يتم تمويل خزينة الدولة عن طريق مصادر متنوعة وتتمثل أهمها في: الضرائب، الجزية المدفوعة من طرف المناطق الموجودة خارج نطاق الدولة، الخمس المتحصل من غنائم الحروب، الرسوم الجمركية المفروضة في الموانئ على السلع المستوردة والمصدرة، الرسوم المفروضة على القوافل المتجهة من وإلى السودان الغربي. كانت الدولة تركز كثيراً على ضمان الحصول على الضرائب لأنها تمثل رمز السيادة، مما جعلها تدخل في الكثير من الأحيان في صدامات مسلحة مع القبائل المتمردة (الرافضة لدفع الضرائب)، وغالباً ما تحدد

نتيجة هذا الاصطدام مصير الضرائب ، وكانت السلطة غالباً ما تحصل على الحد الأدنى من أجل حفظ ماء الوجه وكذلك تأكيد سلطتها على تلك المناطق.

### 3 - طرق التنظيم والاستغلال الزراعي:

كان كبار الملاك الزراعيين نادراً ما يستغلون ملكياتهم بأنفسهم ، لذلك تولدت عدة أنماط وأصناف من العلاقات بين الملاك والمستغلين . وقد تختلف طبيعة العلاقة حسب المناطق والظروف . إذ يتحصل المالك على خمس المحصول من الحبوب في منطقة الحضنة ، ويتحصل على ربع المحصول في حالة ما إذا كانت حبوب الزرع من تقديم المالك . أو يتحصل المالك على أربعة أخماس المحصول بالإضافة إلى مقدار الحبوب المقدمة للزرع في حالة ما قدم المالك بذور الزرع وثيران الحرث والمساعدة باليد العاملة.

في حوض الصومام ، يتحصل الملاك من الأراضي المروية بمقدار كبير على عشر المحصول ، بينما يحصلون على الخمس عندما يتعلق بالأراضي المروية بنسبة ضئيلة.

كان عمال القطاع يحصلون على أجورهم عيناً من المحصول الذي قد يكون زيتاً أو تيناً مجففاً أو عسلاً.

توجد حول بجاية بساتين ومراعي وتوجد أشجار لثتى أنواع الفواكه مثل العنب الأسود والأبيض ذو النوعية الرفيعة أما الجبال فكانت معروفة بتربية النحل.

4 - الصناعة : اشتهرت الدولة بالعديد الصناعات ومن أهمها الصناعة النسيجية التي كانت تمارسها في منازلهن ، أما في المدن فيوجد حرفيين في النسيج يستخدمون يد عاملة مؤهلة بحيث يقومون بصنع أغطية الرأس النسوية من الحرير أو من القطن كما يقومون بصناعة الألبسة المتنوعة. أما في الريف فتقوم النساء بصناعة البرانس . كما اشتهرت بجاية في العهد الحمادي بصناعة الأحذية الخفيفة بجلد التيس وهي بإمكانها تعويض الجوارب لخفتها ورقتها . وبالإضافة إلى النسيج ، كانت الصناعة الفخارية جد مزدهرة حيث وُجِدَت بقايا في مدينتي القلعة

## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

وبجاية وقد كانت الأواني المناسباتية جد مزخرفة على عكس الأواني ذات الاستعمال اليومي.

5- التجارة الخارجية : كانت للدولة الحمادية علاقات تجارية مع العديد من الدول ،وقد كانت القلعة مركز تجاري مزدهر جداً ويستقطب القوافل الآتية من مناطق بعيدة كالعراق ومصر وسوريا والمغرب الأقصى والسودان الغربي ( النيجر).أما بجاية فكانت تجارتها بحرية بالدرجة الأولى ومرتبطة بحالة البحر الأبيض الذي يتأرجح بين السلم تارة والعدوات الشديدة بين مختلف الأطراف تارة أخرى.

قد يحدث أثناء الصراعات مع المسيحيين أن يقوموا هؤلاء بمنع تجارها من التعامل مع الدول الإسلامية مما كان يضر كثيراً الحالة الاقتصادية والاجتماعية للبلاد.

## صفات القائد السياسي والعسكري في دولة المرابطين الأمازيغية الإسلامية

الأمير بوغداده  
استاذ مساعد قسم التاريخ  
جامعة محمد خيضر بسكرة.

### الملخص:

**تمهيد:** لو تأملنا سيرة القادة السياسيين والعسكريين لدولة المرابطين ذات الأصول الأمازيغية والديانة الإسلامية لوجدنا أن قاداته تميزوا بصفات أهلتهم لتولي منصب القيادة كما اهلتهم الى تحقيق النصر والحق الهزائم بالأعداء ومن هؤلاء القادة الذين تميزوا بصفاتهم القيادية أبو بكر بن عمر ، يحي بن عمر ، يوسف بن تاشفين ، أبو محمد مزدلي ، وسير بن أبي بكر وأبو عبد الله محمد بن الحاج وداود بن عائشة و عبد الله بن فاطمة ..... هؤلاء كلهم تميزوا بصفات أهمها :

**الذكاء:** فكانوا أصحاب حجة يقيمون الدليل على خصومهم من الفقهاء المحليين ويختارون الأماكن المناسبة لتربية أبنائهم وتعليمهم .  
**الشجاعة:** يمتازون بشجاعة وصلابة عظيمة سواء في دعوتهم بالأمر المعروف والنهي عن المنكر أو في جهادهم حتى أن بعضهم استشهد في ساحة المعركة.

**المهابة:** وهي من الصفات التي ظهرت وثبتت تاريخيا في سيرة هؤلاء القادة، وكمثال على ذلك القائد عبد الله بن ياسين الذي كان نهيبا قويا شديدا( إذ كان يخوض الحروب بنفسه ويتقدم في ميدان الفروسية) .

**الأمانة:** اتصف قادة المرابطين بالأمانة فعظم شأنهم في نظر أتباعهم وفي تاريخ المسلمين. مما أكسبهم في نفوس الناس قبولا.

## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

الحياء : هذه الصفة التي جبل عليها قادة الدولة المرابطية إذ أن الحياء في نظر هؤلاء شعبة من شعب الإيمان كما ثبت في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكان من ثمة لازما عليهم أن يتصفوا به .

العلم: والحلم كما هو معلوم سيد الأخلاق فالحليم هو الذي يتحمل أسباب الغضب فيصبر ويتأني ولا يثور فهاهو القائد عبد الله بن ياسين يعفو عن قبيلتي جدالة ولمتونة اللتان حاربتا دعوته عندما تمكن منهما بل وأحسن إليهما . الإكثار من طاعة الله وإعداد النفس لتحمل المشاق :

حيث تربو على حسن صلتهم بربهم لكان لهم حظ من القرآن والصيام والقيام وحسن الصلة والإنفاق في سبيل الله . القدوة الحسنة للجنود: كان قادة المرابطين يقودون المعارك بأنفسهم مما أذى بكثير منهم إلى الاستشهاد في ساحات الوغى .

الحرص على ترقية وتطهير جنودهم والارتقاء بهم طاعة لله عز وجل . الخبرة بأمور الحرب والقوة فيها : وقد ظهر ذلك جليا في قادة المرابطين أثناء جهادهم من أجل توحيد المغرب الأقصى كله .

1- البعد عن طلب القيادة وابتغاء الرئاسة: وظهر هذا المعنى في شخصية القائد أبي بكر بن عمر فعندما لمس في ابن عمه مقدره على القيادة أسند الأمر إليه .

2- إسناد الأمور إلى أهلها : وهي صفة ظهرت في سيرة يوسف بن تاشفين عند تعيينه للولاة والقادة والفقهاء ، وعزل كل من يقصر في عمله .

3- تربية الجندي على التسليم المطلق لله لا لشخص القائد : كان قادة المرابطين يضربون أروع الأمثلة في زرع هذه المعاني في نفوس جنودهم لا سيما أثناء المعارك .

4- الحرص على قاعدة الشورى: كان لقادة المرابطين نواب ومجلس حربي يضم قواد الفرق العسكرية المختلفة لدراسة الخطط الحربية ، والتشاور في أمور الجهاد والبلاد والعباد .

5 - الحرص على تحقيق الأهداف والضبط الإداري وقوة التأثير .

6- الشجاعة والكرم .

7 - التصرف الحكيم السريع أمام المفاجآت

## بعض الجوانب من الحياة الثقافية في الدولة الزيانية.

عزيز نعمان

أستاذ مساعد جامعة: مولود معمري- تيزي وزو

### الملخص:

تسعى هذه المداخلة لإبراز بعض جوانب الحياة الفكرية المميّزة للدولة الزيانية في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر ميلادي)، وهو القرن الذي وإن شهد حالة ضعف ووهن سياسي فإنه لم يكن كذلك على الصعيد الثقافي، فثمة ما يمت بصلة قوية إلى ثقافة شعبية أصيلة مصدرها السكان الأصليون من الأمازيغ وما جاء به العرب الفاتحون وأهالي الأندلس المهاجرون، حيث تثبت بعض الوثائق أن للسكان الذين حافظوا على اللغة الأمازيغية تراثا شعبيا علق بذاكرة الأهالي يرجع تاريخه إلى مجاهل القرون. وهو ما يوحى بعراقة الذاكرة ويعكس ثقافة شعبية عامة ذات حضور فعلي وحقيقي. وذلكم جانب لم يحظ باهتمام المؤرخين، فنروم من خلال مداخلتنا التعريف ببعض ما قد يكون خفيا لدى العامة بخصوص ما طبع ولا يزال يطبع المغرب الممتمك لبيئة ثقافية ثرية معطاءة على غرار سائر المناطق والشعوب.



## دور القوى المحلية في ظل الحكم العثماني في الجزائر (1519-1830م)

الأستاذ الدكتور أرزقي شويتام  
أستاذ محاضر قسم التاريخ جامعة الجزائر

### الملخص:

يرى بعض المؤرخين أن الأتراك العثمانيين قد انفردوا بالسلطة في الجزائر، ولم يتركوا أي دور للقوى المحلية طوال فترة حكمهم، وأن العلاقات التي كانت تربط الحكام بالسكان كانت مقصورة على جمع الضرائب فقط. وقد حالت السياسة التي نهجها العثمانيون دون انتقال السلطة الفعلية إلى القوى المحلية الوطنية.

عند تناولنا لموضوع طبيعة الحكم العثماني في الجزائر، نتبادر إلى أذهاننا بعض الأسئلة، منها على سبيل المثال: ما هي حقيقة طبيعة الحكم العثماني في الجزائر؟ هل كان للقوى المحلية دور في تسيير شؤون البلاد؟ ما هي الأطراف التي كانت تتحكم في السلطة الفعلية؟ إن كل هذه التساؤلات المطروحة تستوقفنا، وتتطلب منا مناقشتها بكل موضوعية لإظهار الحقيقة التاريخية. ولا يتأتى ذلك إلا بعد دراسة العلاقات السائدة بين الأتراك العثمانيين والقوى الفاعلة المحلية، معتمدين في ذلك على الوثائق والمصادر الأولية لتلك الحقبة

# المداخلات



## الوجود الحضاري في أوجهه السياسية و الإجتماعية و الثقافية و العلاقاتية قبل الفترة الإسلامية

الأستاذ: خدام محند أوبلقاسم.  
باحث في التاريخ

مقدمة : إن رسالة التاريخ هي إعطاء الشعب وعيا متنامي على الدوام ، و عميقا قدر الإمكان بما كان ، و بما أصبح عليه ، وبما يريدان أن يصيره ، أي كيف يريد أن يبني مستقبله ، ولكي يبني شعبنا مستقبله على أساس متينة آمنة، بعيدة عن الهزات المتكررة التي تحدثها الأيديولوجيات المتضاربة ، المتناقضة التي كثيرا ما تنموا و تزدهر في أجواء و مناخات الميوعة و الغموض و التردد و الشكوك المتصلة بالهوية و الشخصية و الثقافية.

ينبغي أن يكون شعبنا على كامل الإدراك بما كان عليه في الماضي البعيد ، و القريب، حتى يستطيع أن يساهم بكل وعيه في بناء هذا الكيان التاريخي الذي شرع فيه أسلافنا، هذا الكيان الذي هو تراث مشترك بين سكان هذا الوطن العزيز دون إستثناء.  
إن ماضي بلادنا ما يزال ملفوف بضبابيات الغموض. إنه في حاجة ماسة إلى أن يدرك بعمق و تجذر، و بروح جزائرية، نزيهة، مجردة من أجل أن يتبلور بوضوح في الأذهان الجزائرية ليتم إستيعابها حقا، ثم تبنيه من طرف العقول و القلوب و بقناعة."

من هذا المنظر حاولت أن أبلور مجموعة من الأفكار الأساسية بتركيز شديد مراعاة للوقت المتاح لنا في هذه المناسبة العلمية السعيدة، أفكار تحوم حول وجودنا التاريخي العريق كشعب كبير، يشارك بفعالية في صنع تاريخ شمال إفريقيا، منذ بداياته الأولى، إلى جانب أمم و

شعوب أخرى، لم تكن أقل أهمية منها. ظل الصراع بيننا مستمرا دون إنقطاع ، هدفه إثبات الذات و تعزيز الوجود ، و المحافظة على المجال الحيوي، و الدفاع عنه ضد غزاة لا حدود لجشعهم، تسببوا لنا في كثير من المعانات ، لم يذكر التاريخ إلا قليلا منها.  
لا أود إضاعة الوقت في سرد عناصر العرض، فسوف تبدو جلية في سياق السرد.

### بطاقة التعريف:

و بما أن بلاد الأمازيغ تدمرت كغير من بلدان العالم القديم بتطورات حضارية، و تغيرات ثقافية و سياسية كثيرة، فقد خضعت التسمية ذاتها المنطق، و نفس الدينامكية، بحيث أصبح اسم "تامازغا" أي بلاد الأمازيغ، الذي كان عليه منذ القديم.  
لقد أطلق اسم " ليبيا" على بلاد الأمازيغ من طرف كثير من الحضارات القديمة ، كالحضارة الأغرريقية ، و الفنيقية و الفرعونية و القرطاجية... فالمصطلح " ليبيا" إذن يشمل كامل بلاد المغرب الكبير ( اليوم). و قد مرت هذه التسمية بتعديلات إن شئتم ذكرناها جميعا في المناقشة.  
أما المؤرخون القدامى الذين إستعملوا مصطلح " ليبيا" و أطلقوا على كامل شمال إفريقيا بل و جزء من مصر الغربية، هم :  
هيرودوت ( القرن 5 قم) و سيلاكس Sylax و " سترابون Stgrabon «و قد استعمله هوميروس في إلياذته)2  
المحافظة على الذات :

قال سالوست Saluste : " إن الإنسان الأمازيغي يستوعب كل الحضارات و لكنه لا يستوعب من أية واحدة"  
أما رينان " فيكتب بدوره قائلا : " إن مختلف الفاتحين قد إختفوا دون أن ينجحوا في التغيير المحسوس للإثنوغرافيا ت اللغة الأمازيغية. فبقايا الفنيقين و الأغرريق و الرومان و الوندال قد ذابت فيها تماما في قوة الجنس الأمازيغي، ذي الحيوية و الطاقة، ذابت فيها البقايا ، و ابتلعت. كما فرضت عبقريتها على الغالبين أنفسهم.

بقدر ما نفهم بعمق لغة و تاريخ إفريقيا الشمالية بقدر ما نقتنع بهذه الحقيقة ، وأن الأمازيغ المشكلين في واقع الأمر للأغلبية الكبرى للسكان المحليين بالجزائر، إنما هم من أصل و لغة الهيند و أروبية<sup>3</sup>. المحافظ على الروح الوطنية :

قال الباحث الكبير " بواسيار " : إنما الأمر الخارق للعادة هو أن الأمازيغ أثناء كل هذه التطورات ، قد حافظو على الروح الوطنية. فإن هذا الشعب الأمازيغي الذي ظهر لنا سريع التغير ، سريع التطور مع المدنيات التي تعيش معه . إنما من الشعوب التي إستطاعت أن تحافظ أحسن احتفاظا على طابعها الأول ، و مميزاتها الخاصة. و أننا نراه اليوم على نفس الطريقة التي رآه عليها الكتاب الأقدمون، و أنه ليعيش اليوم كما كان يعيش تقريبا أيام يوغورط. ولا نقول أنه قد احتفظ فقط على كيانه وسط الأقوام التي عاشت معه بل أنه ابتلعها و أسدل عليها رداه "4.

### وجود الإمارات الأمازيغية قبل و أثناء الوجود القرطاجي:

قال ستيفان قرال " « Stefane Gzell » المتوفي في الثلاثينات من القرن الماضي " إن تاريخ عهد قرطاجة لا ينحصر في المدن التي أحدثوها كمر اكز تجارية بشواطئ البلاد، فإن بد اخل البلاد كان يوجد شعب كون إمارات ، و كانت هذه الإمارات الأمازيغية في حالة حرب أحيانا و في حالة سلم أحيانا أخرى مع القرطاجين كما بقوا على هذه الحالة في عهد الرومان، و أن هذه الإمارات كانت مجهولة تماما، إلا قليلا منها، لدى المؤرخين القدامى من اليونانيين و اللاتنيين. و إن أتيح لنا اليوم أن نكشف القناع عن تاريخهم ، فذلك يرجع الفضل فيه للنقوش باللغة الفنيقية ( و اللببية، و العثور على بعض الآثار كالمسكوكات و الأصرخة ... كما يرجع الفضل في هذه الإكتشافات إلى صمود و محافظة سكان إفريقيا ( المغاربة اليوم)، إذ هم مشهورين و معهم الإيطاليون بأنهم في مقدمة الأمم المحافظة على التقاليد و العادات "5

## العلاقات المصرية ( الفرعونية ) الأمازيغية :

" تسيطر على العلاقات المصرية الأمازيغية جهود الفراعنة المستمرة منذ العصر التيني 3000-2700 قبل الميلاد ( أي عصر الملكين العقرب و نارمر لدفع الليبين الذين جذبتهم ثروات وادي النيل، و أراضي الخصبة خاصة البدو و سكان الصحراء الليبية . ذلك لأفتقارهم الأمل في الوصول إلي مناطق المدن و الحضارة لنهبها، و الإستقرار فيها، و ذلك عن طريق معاقبتهم، خاصة أنهم كانوا يتحالفون مع الثوار في الدلتا. و هؤلاء كانوا يرفضون الإتحاد مع مصر العليا... " و قد درج فراعنة العصر التيني، و السلالات الأولى و الثانية، و الدولة القديمة على أتباع هذه السياسة الدفاعية. و خلدوا أخبارهم على أوابد تذكارية، و على الهراوات الحجرية، و لوحات مزج مساحيق الزينة. و من أكرها الوثائق التي تسجل مواضيع تاريخية، أطلق الباحثون على تسميتها:

" لوحة الحصون" تعرض مشهدا يرمز لإنتصار حققه

الفرعون الغامض المعروف بإسم " العقرب". فقد رسم على الوجه الأول اللوحة صورة سبعة مواقع محصنة بأسوار ذات أبراج، تقوم حيوانات ترمز إلى الملك، من بينها العقرب بتهديمها، و على الوجه الآخر ترى صفوف من نيران و حمير و كباش متتالية. و في الأسفل شجرتين غنمها الملك العقرب من ليبيا و هناك إلى جانب الأشجار العلامة الكتابية الخاصة بليبيا".

أما الملك " آها" أو " مينس " أول ملك في السلالة الأولى -

فهناك عدد من الأوابد تشير إلى انتصاره على أقوام ليبين ( أي أمازيغ ) و مصريين الشمال. و بفضل حجر " بالأرمو" نسمع عن حملة قادها الملك " سنفرو" أول ملك السلالة الرابعة لحرب الليبين انتصر فيها، و عاد بعد أن غنم 11000 أسير + 131000 أرس ماشية. " 6  
إن ما قدمناه هنا إلى القارئ الكريم هو وثيقة رسمية صحيحة من وثائق الدولة الفرعونية المصرية، نقلها حرفيا دون زيادة أو نقصان كما أوردها بالضبط الدكتور هشام الصفدي في مجلة الأصالة العدد 14 لسنة 1973. و يسعدني أن أعلق قليلا على هذه الوثيقة.

## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

إن أقل ما يمكن استنتاجه من هذه الوثيقة ان الأمازيغ ( كانوا يسمون باللبيين عموما) كانوا يقيمون علاقات مع الفراعنة، سليمة أحيانا، و حربية أحيانا أخرى. و إن المصريين حسب هذا النص التاريخي قدمها هاجموا الأمازيغ بعد أن كانوا يدافعون فقط ( سياسة دفاعية) و إنهم غنموا غنيمة تدل على ثروة كبيرة لدى الأمازيغ ( ماشية). و إن الأمازيغ كانوا يتحصنون في تحصينات منيعة، و بنايات حربية ضخمة، و أن لديهم لغة مستعملة في الأجهزة الرسمية ( الدولة) و تتوافق هذه الوثيقة مع وثائق تاريخية أخرى عن المدن الأمازيغية...

ذات التحصينات القوية المنيعة، و أن هناك فنتين من السكان : البدو و الحضر و أن لهم جيوش في مستوى العصر يوظفون العربات و الخيول إلى جانب المشاة و أن أسلحتهم كانت فتاكة، و أن النساء كن يشاركن في الحروب ويقدن العربات ، فاللوحة المذكورة في الوثيقة ( لوحة الملك العقرب) تشير إلى سكان بلاد الأمازيغ مهما كانت حدودها الشرقية مع مصر الفرعونية، كانت لهم ( الأمازيغ) منذ الألف الثالثة قبل الميلاد مدن محصنة، و زراعة و تربية المواشي و حيوانات أهلية و فيرة و ملابس و عادات خاصة بهم، و ملامح أنثوغرافية محددة، و صلات و علاقات مع مراكز الحضارات الأخرى.

### كو نفيدرية أمازيغية فرعونية:

يقول هشام الصفدي ( كان أستاذ تاريخ المغرب القديم بجامعة الجزائر) " و لا يستبعد أن تكون ليبيا ( بلاد الأمازيغ) متحدة مع دلتا مصر في الأصل، و لها دور سياسي و حضاري يعبر عنه الحدث التاريخي التالي:

" أخذ فرعون مصر التاج الأبيض من أيدي الأجانب العظام الذين يحكمون الليبيين" ( عبارة كتبت في الوثيقة السابقة الذكر) ثم حدث إنفصال لأسباب إقتصادية تتعلق بطبيعة وادي النيل، و ضرورات اتحاد الجنوب مع الشمال. و لربما تشكل عودة الليبيين إلى مصر في عهد السلالتين 22 و 23 رجوعا إلى الهداية التي إنطلقت منها العلاقات مع المنطقتين في باكورة التاريخ"7 .



و هكذا ظلت العلاقات الأمازيغية المصرية مستمرة حربا و سلما، بما في ذلك علاقات المصاهرة " حفيد الملك " صنفرو" و ابن باني الهرم الأكبر المسمى " فرع" يتزوج أخته من أبيه و أسماها " حنط حيرس". و قد عثر على صورة هذه الملكة في مدفن إبنتها محاطة بكامل ألقابها الملكية. و خلافا للنساء المصريات تتميز " حنط حيرس" بشعر أشقر، و عيون فاتحة، كما ترتدي ثيابا أجنبية.

ويمكن إعتبارها أقدم ممثلة للبيين الشقر " التيميهو" الذين يدخلون لأول مرة عن قرب في تاريخ الدولة المصرية القديمة. و المبح أن الملك خوفوا إتخذ لنفسه زوجة ليبية هي أم " حنط حيرس" الشقراء. و منذ ذلك العهد ستتخذ موقف مصر موقفا مماثلا من اللبيين، فتكرر السلالة الواحدة و العشرين"7.

و هذا النص الوثائقي المعبر عن نفسه الذي لا يمكن التشكيك فيه ، يدل على عمق الروابط بين الأمازيغ و الفراعنة، لآلى المستوى الشعبي فقط و إنما على مستوى، فإذا كان الفراعنة الملوك أنفسهم يتزوجون الأمازيغيات ، فمعنى هذا أن المستوى الحضارى بين الشعبين و الحضارتين متقارب بل متطابق، ثم هذه العلاقة الحضارية العاطفية، علاقة المصاهرة لم تكن حدثا عارضا أو إستثنائيا، بل هي علاقة مستمرة بدون انقطاع في الزمن. و الدليل أن يوبا الثاني الملك الأمازيغي زوجته مصرية من الأسرة الحاكمة، و هي "كيليوباترا" الملكة المشهورة، و ما الضريح الكبير الشائع الصيت، و المسمى مجازا "قبر الرومية" إلا شاهدا على عظمة الملوك الأمازيغ، و عظمة مشاريعهم العمرانية، مثله مثل "ضريح ماسينيسا" المسمى " إيمدراسن" و لا أريد أن أنهى سرد الأدلة على قدم و إستمرار العلاقات بين الأمازيغ و الفراعنة المصريين دون سياقة أدلة أخرى تتعلق بفترة تاريخية أخرى عن هذه العلاقات القوية و لو أنها تحدث في الفترة الإسلامية، وهدفي من ذلك إضافة أدلة أخرى تعزز سابقاتها، و هي أدلة يوردها مؤرخ متخصص و نزيه، محايد خاصة و انه عربي أصيل لا يمكن أن يتهم بتحيزه للأمازيغ " الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن من جامعة قطر" في كتابه " المغاربة في مصر في عصر العثماني 1517- 1798 .

إليك أيها القراء مجموعة من الفقرات أنقلها إليكم بكل أمانة دون أي تصرف منا:

" العلماء المغاربة و دورهم في الحياة العلمية و الثقافية: " إن المتتبع لحياة العلماء المغاربة الذين درسوا في الأزهر، و في المدارس العلمية الأخرى التي كانت تابعة له في القاهرة، أو في المدارس العلمية الأخرى التي كانت منتشرة في المدن المصرية المختلفة.. في العصر العثماني من خلال وثائق المحكمة الشرعية، و كتب التراجم الخاصة بذلك العصر، و النشاط العلمي لهؤلاء العلماء الذين درسوا في مصر، و العطاء العلمي الذي قدموه للحياة الثقافية في مصر، و الوطن العربي مشرقة و مغربة و تأثيهم علي هذه الجوانب ليدهش،  
أولا : لضخامة هذه السلسلة من العلماء المغاربة الذين تخرجوا على يد العلماء المصريين، و عاشوا برواق المغاربة بالجامع الأزهر، حتى تمكنوا من الوصول إلى أعلى مناصب التدريس في الأزهر ذاته، و مدارس القاهرة و الإسكندرية العلمية بل أن كثير منهم وصل إلى منصب الأفتاء حتى أن الوثائق تتعنتهم دائما بذكر عبارة " من أعيان أهل الإفادة و التدريس بالجامع الأزهر " أو " العلامة الأوحد " أو " العلامة المفيد " أو " الحجة الهمام " كمال المحدثين الفخام، و غير ذلك من النعوت التي تزخر بها الوثائق. و هذا ما يدل على مكانتهم العلمية : و من أشهر هؤلاء العلماء : الشيخ محمد حسين الجزائري المتوفى 1778 . و الشيخ أبو العباس الجزائري المتوفى 27 مايو 1788 م.  
" و تذكر الوثائق : و ثائق المحكمة الشرعية ، و المصادر المعاصرة أن طلبة العلم من المغاربة و المتصدرين بالأزهر، و المدارس المصرية انشغلوا بكافة العلوم المعقول منها، و مارسوا مختلف الفنون الأدبية و الغوية، و العلوم الرياضية و الفلكية"

### المغاربة و الأنشطة الصناعية و الحرفية

استطاع أبناء الجالية المغربية ( المغاربة ) منذ مطلع العصر العثماني بمصر أن يدخلوا أبواب معظم الحرف المهنية و الصناعية التي كانت سائدة بمصر آنذاك و في مختلف المدن المصرية، بل أنهم نقلوا

## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

نقلوا إلى مصر حرفا جديدة ، و احتكروا الأشغال بها، واستطاعوا عن طريق احتكارهم لهذه الحرف أن يكونوا رأس ضخم ، و أن يلعبوا دورا هاما في حياة مصر الإقتصادية و الإجتماعية".  
" و أهم الحرف الصناعية التي وردت في وثائق المحكمة الشرعية ، وردت مقترنة بأسماء المغاربة هي : عصر الزيتون ، صناعة الصابون ، غزل و صناعة الأقمشة، صناعة الأقمشة، صناعة الأحزمة، صناعة الشيلان المغز بيق، صناعة العطور، صناعة السكر، صناعة القفاص، صناعة الح صر، صناعة الأدوات الحديدية ( الحدادة)، دباغة الجلود، صناعة الأدوات الخشبية، النجارة صباغة الملابس، صناعة المجوهرات، و الأحجار الكريمة، صناعة السروج ( السروجية) صناعة القزازة، صناعة المحلل ( المخ لانية)، صناعة الملابس الصوفية و القطنية البلدي منها و الرومي، و حياكتها، صناعة المنسوجات الكتانية بأنواعها و السجاد".

" فأبناء المهنة الواحدة من المغاربة كان لهم شيخهم ونقيبهم، و وكيل لهذا الشيخ الذي يشرف على إشئخ لهم بهذه المهنة، و يحصل الضريبة المفروضة على الطائفة، و يفض المنازعات بين أفرادها، ملتزمة بقواعد المهنة".

انه لا تحدث عليهم حادثة، و لا تجدد عليهم مظلمة، و أنه لم يدخل في صناعتهم أجنبيا".

" و من الملاحظ من الوثائق ان الطائفة المهنية كانت تضم بين أعضائها أفراد من معظم البلدان المغربية، فنجد منهم الجربي، و التونسي، و البنزرتي، و الصفاقسي و الطرابلسي، و التطواني، و المستغامي و الجزائري، و الفاسي، دون تفرقة ما دامت تجمعهم صفة المغربي، و لأن كثيرا من أصحاب المهن الصناعية من المغاربة الذين يعملون في ورشهم، كان يقوم على أساس إختيار الأفضل ، دون التحيز لأبناء إقليم مغربي معين على آخر ما دام يبدي إستعداده للإلتزام بالشروط السالفة الذكر".

"... و تمكنوا من تكوين ثروات ضخمة، لا تقل أهمية عن ثروات فئة التجار، و ذلك نتيجة لادارتهم المحكمة و إشرافهم الدقيق على هذه الصناعات، و تحكّمهم في عمليات الإنتاج و التوزيع".

" كان المنتج يقوم بعمل تاجر التجزئة، فيفتح دكانا بجانب و رشته، يبيع فيه و تحت إشرافه كميات صغيرة لأبناء المنطقة".

" و قد إشتغلت بهذا العمل كذلك النسوة، ليقمن بالتوزيع على النساء في البيوت و خاصة من ملابس النساء، و الأدوات المنزلية".

" الحقيقة أن تحكّم أصحاب هذه الحرف الإنتاجية التي كانت تمس حياة المجتمع، و خاصة الغذائية منها، لم يكن قصرا علي القاهرة دون غيرها من المدن المصرية، و إنما كانت ظاهرة عامة شملت معظم المدن المصرية، و الريف المصري كذلك".

" و لما كان المغاربة لهم السيطرة على إنتاج معظم هذه السلع، فإن الإدارة عند إتخاذها أي إجراء خاص بتحديد الأسعار، و المنادات عليها، كانت تحرص على أن يحضر المغاربة الإجتماعات الخاصة باتخاذ هذه الإجراءات".

" و أفراد المغاربة بالذكر دون غيرهم من أبناء الجاليات الأخرى التي كانت متواجدة بمصر آنذاك يدل على فاعليتهم في إنتاج هذه السلع، و التحكّم في أسعارها".

" و نتيجة لهذه المنتوجات المتصلة بحياة جميع المصريين، فقد توطدت علاقتهم بأبناء المجتمع المصري و تعاملوا معها بيعا و شراء، و تأدية خدمات، و أصبحت حوانيتهم و وكالاتهم تتعامل مع أبناء المجتمع المصري، و عن طريق هذه المعاملات أثروا في هذه المجتمع كما تأثروا به، و انتشرت العادات و التقاليد المغاربية نتيجة لهذا الأختلاط بصورة واضحة في مجتمع المدينة المصرية، حتى انتشار الزي المغاربي أصبح شائعا بين فئات الشعب المصري، و كذلك انتشرت الأطعمة المغاربية في أحياء المدن المصرية و خاصة في مدنتي القاهرة و الإسكندرية، كما أن قطاعا كبيرا و بخاصة في مجتمع الإسكندرية تأثروا إلى درجة كبيرة باللهجة المغاربية التي لا تزال تأثيراتها واضحة حتى يومنا هذا

"... لم يقتصر إنتشار المغاربة على المدن، بل انتشرت كثيرا من أبناء المغرب في معظم مدن الدلتا و تعاملوا مع سكان هذه المناطق، و تركوا بصمات تأثيرهم عاى مجتمع هذه المدن الإقليمية و القرى المحيطة بها. و لم يكن تأثيرهم قاصرا على المصريين فقط، و انما على شمال أبناء الجاليات الأخرى التي كانت تعيش في المجتمع المصري مثل الشوام، و السودانين، و الأروام، و الأوربيين. مما يدل على ضخامة الأثر الذي تركته هذه الفئة من الجالية المغاربية على الحياة الإجتماعية المصرية، من تأثير العادات و التقاليد و الأعراف، بل الذوق، نتيجة انتشار الملابس و الأطعمة المغاربية".

### فئة التجار و دورها في التأثير الإجتماعي:

"... اتضح لنا أن هذه الفئة ( من التجار المغاربة) أصبحت تلعب دورا واضحا في الحياة الإقتصادية المصرية. و تعددت محالات استثمارها لرؤس أموالها، و تشابكت مصالحها مع مصالح الطبقات العليا في المجتمع المصري، و بخاصة مع الأمراء المماليك و رجال الإدارة و باشاوات مصر، و علمائها، و تفيض المصادر المعاصرة، و سجلات المحاكم الشرعية في تضخيم دور هؤلاء التجار، و المكانة الإجتماعية التي أصبحوا فيها حتى كانوا فئة ذات تمايز إجتماعي واضح".

و من الجدير بالذكر أن نجلب إنتباه القارئ إلى فكرة أساسية هامة و هي أن قبيلة كتامة الأمازيغية التي كانت تمتد رقعتها في الوطن الجزائري من منطقة دلس إلى جيجل و بجاية حتى حدود قسطينة هي التي أسست الدولة الفاطمية و بنت القاهرة و بعض المدن الأخرى بمصر بقيادة القائد الأمازيغي المغوار " المعز الدين الله" ابتداء من 952-975م و منذ ذلك التاريخ لم يتوقف المغاربة عن التدفق إلى بلاد مصر . و هذا هو سبب هذا التكاثر الذي تكيف عبر الزمن مرورا بعصر الموحدين ثم العثمانيين الذين عززوا عملية هجرة الأمخاخ و الكفآت العملية و الإقتصادية إلى مجالات أكثر حرية و كانت مصر لحسن حظها في ذلك

الزمن أكبر المستفيدين من الطاقات المغاربية أعود بعد هذا التوضيح الضروري إلى موضوع المغاربة في مصر.

### المغاربة و التأثير الثقافي

" منذ العصر المملوكي بدأت صلة المغاربة، بالأزهر و المدارس المصرية تقوى و تزداد ترابطا و قد تصدى للتدريس في عهده الجديد بعض العلماء المغاربة، و كان لهم نشاطهم البارز في رحابه، و من بين العلماء العلامة " عبد الرحمان بن خلدون... و قد ترك أثره العميق يومئذ في التفكير المصري... أما الطلاب المغاربة في الأزهر فعددهم كبير... " و أصبح الرواق بمثابة مؤسسة ثقافية و إجتماعية تقدم خدماتها لأبناء المغرب على مختلف مواطنهم ، بقاهاهم طوال مدة دراستهم في الأزهر، و أداء مهمتهم العلمية فيه إذ كانوا من المدرسين، و كان الرواق يصرف مرتبات، و جزيات لأبناء المغرب من طرابلس إلى المغرب الأقصى".

و قد وجد الرواق العون المادي الضخم من التجار المغاربة في القاهرة و المدن المصرية الأخرى، و الراغبين في أعمال البر، و مشجعي العلم الأثرياء المقيمين بالبلدان المغربية ذاتها. و قد سجلت لنا و ثائق المحكمة الشرعية المئات من مختلف العقارات الموقوفة على رواق المغاربة، في داخل المدن المصرية و خارجها. و يصرف ربع كل ذلك على طلبه العلم المالكية المجاورين برواق المغاربة بالجامع الأزهر، و اردات الأوقاف من جانب التجار و أثرياء المغاربة على هذا الوجه، و على بعض العلماء المغاربة بصورة تستدعي الانتباه.

### - التأثير الاجتماعي عن طريق علاقات الإنتاج.

"... و ما تجدر الإشارة إليه أن هذا التأثير المغربي كان مغاربيا عاما، يحمل السمات العامة لبلاد المغرب الكبير من المحيط إلى حدود مصر الغربية، لأن هؤلاء المغاربة كانوا ينتمون الى جميع الأقاليم المغربية، فكان تأثيرهم عاما يشمل سمات هذه الأقاليم و عاداتها و تقاليدها و أعرافها. و مما يدل على تأثير المغاربة القوي على المجتمع

المصري. إن كثير من أحياء و شوارع و حارات، دروب و أسواق و  
وكانل المدن الكبرى في مصر و خاصة القاهرة و الإسكندرية و مدن  
الثغور الأخرى أصبحت تحمل اسم "المغربي"، "المغاربة"،  
"الجريبي"، "الفاسي"... الخ

"... إن تأثير الجاليات المغاربية على المجتمع المصري كان  
قويا على نواحي الحياة كلها حتى أن تأثيرهم صبغ بعض أهالي المدن  
المصرية، و بخاصة مدينة الإسكندرية التي كان الوجود المغاربي فيها  
كبير الدرجة تثير انتباه أي ناظر في سجلات محكمة الإسكندرية  
الشرعية، و محكمة الجزيرة الخضراء التي كانت تقع بطا هرا  
الإسكندرية، لكثرة المواد المتعلقة بالمغاربة في هذه السجلات.  
حتى ليبدو للباحث و كأن غالبية السكان من المغاربة، و ل ذا فإن  
اللهجة المغربية تركت بصماتها الواضحة على سكان هذه المدينة، هذا  
القول ينسحب على التأثير المغربي في الملبس و الأطعمة المغربية التي  
توجد بالإسكندرية، كذلك لهم تأثير على المدن المصرية الأخرى، حتى  
أن كثيرا من شوارعها و حار اتها، و دروب هذه المدن أصبحت تحمل  
اسم "المغربي" و "المغاربة" أو تحمل أسماء من أعلام من المغاربة.  
سواء كانوا تجار أم علماء عاشوا في مصر في تلك الفترة، هذه فضلا  
عن أن كثير من التقاليد و العادات المغربية لا تزال حتى يومنا هذا سائدة  
في المجتمع المصري".

"... و هكذا... فعندما واجهت مصر أول غزو أجنبي عليها، ممثلا  
في الحملة الفرنسية 1798 فقد ذهب المغاربة يلتفون عنها" و هم  
يشعرون أنهم يدافعون عن وطنهم تماما و قفوا الى جانب أشقائهم من أبناء  
مصر في مواجهة كثير من مواقف الظلم الاجتماعي و هكذا أدرك  
نابليون خطورة وجود هؤلاء المغاربة على حملته، فعمل على إخراجهم  
من مصر، و لكنه فشل في مسعاه... و قد سجل رجال الحملة شدة مقاومة  
هؤلاء المغاربة لهم، و الحق ما شهدت به الأعداء" 8.

و أود أخيرا ألا يفوتني جلب انتباهكم إلى أن تأثير المغاربة ( و  
أعني بهم الأمازيغ ) على المصريين منذ العصور الغابرة قد تجاوز  
حدودهم فيما بعد ليشمل كامل بلاد الشام خاصة سوريا الحالية و

فلسطين، و لو أن مصر نالت الحظ الوفير من هذا التأثير الإيجابي جدا. قد يقول قائل أن التأثير كان متبادلا بين الطرفين، الجواب، نعم، لكن دور المغاربة في هذا التأثير المتبادل كان أهم و أكثر فعالية و كرم، و ليس هذا من المبالغة في شيء، و الخوف من اتهامهم في هذه المحاضرة بالمبالغة هو الذي دفعني إلى الإكثار من الاستشهادات من هذا المصدر العربي الموثوق الذي لا يمكن أن يطاله لسان الشكاكين و العتابين من إي باحث لا يستقي مما يستقون، و يستند في معلوماته إلى ما يستندون. ربطت بين الفترة التاريخية لما قبل الإسلامية و الفترة التي بعدها فيما يخص العلاقات الأمازيغية المصرية، و هدفي من ذلك هو البرهنة على استمرار هذه العلاقات دون انقطاع منذ ما قبل التاريخ الى عصرنا هذا، و غايتي إقناع من يقرأ هذه المساهمة بحقيقة أن الشعب الأمازيغي كان له وجوده على مسرح التاريخ كشعب متحضر، تبادل التأثير و التأثر مع الحضارات المجاورة و المعاصرة له، ابتداء بالمصريين لكونهم يجاورونه في الحدود الجغرافية، و احتكوا معه و جها لوجه في الحرب و السلم منذ آلاف السنين. ليعلم من لا يعلم أن الحضارة الأمازيغية ليست خرافة ابتدعتها صراعات القرن العشرين.

تحدثنا بنوع من الإسهاب عن علاقة أجدادنا الأمازيغ بالفراعنة المصريين في حالات الحرب و السلم في عصر ما قبل التاريخ ثم ربطنا الحقائق بالعصر الإسلامي حتى تكتمل الصورة في ذهن القارئ. و نود الآن أن ننقل إلى حضارة أخرى لها باعها و بصمتها في حوض البحر الأبيض المتوسط، و التي ربطتنا بها علاقات متينة طوال الألفية الأولى قبل الميلاد، و نعني بها الحضارة القرطاجية الأمازيغية.

**الحضارة القرطاجية كان من المفروض أن تسمى " قرطاجية امازيغية**  
لماذا؟ لأن الشعوب – كما تعلمنا- هي التي تصنع الحضارات، و ليس العائلات، و إن كانت حاكمة. فالشعب الشغيل في جميع ميادين العمل و الإنتاج في قرطاج هو الشعب الأمازيغي، و ليس العائلة الحاكمة، مهما كان انتماءها ا واصلها أو ثقافتها أو عقيدتها.



و إليكم ما قاله الأديب - المؤرخ الجزائري " علي دبور - رحمه الله - في هذا الصدد:

" إن اختلاط الفينيقيين (و هو هنا يعني القرطاجيين ) بالأمازيغ، و امتزاج دمائهم، قد اكسب الفنيقيين خصائص الأمازيغ، و هي الميل الى حكم الشورى، و كره الاستبداد، و المركزية الطاغية في الحكم فاثروا النظام الجمهوري العادل ، فكانوا من اسبق الناس الى حكم الشورى. و هو الأسلوب الجمهوري الذي قلدهم فيه الرومان، أن بلاد الأمازيغ المغرب الكبير اليوم من أول الأقطار التي اهتدت الى النظام الجمهوري الحقيقي فشرعته للناس و أن فضله على الإنسانية بهذا لعظيم كانت قرطاج تعتمد في حروبها على الأمازيغ سيما النوميديين و تراهم أهم قسم في جيوشهم و كان فرسان المغاوير و أهل الكرم و الصدام من نوميديية فالمشاة و الفرسان من الأمازيغ فهما القوتان اللتان تعتمد عليها القوة الحربية الباسلة في الدولة"... و كان أسطولهم قد بلغ 500 سفينة، و ملاحوهم عشرات الآلاف"

فكما كان الشام بالنسبة للعلاقات مع الفراعنة في الجانب السلمي منها الذي شمل علاقات المصاهرة و التزوج، فنفس الأمر حدث بالنسبة للعلاقات الأمازيغية القرطاجية.

و حسب المؤرخ " ابيان " فان ماسينييسا قد زوج إحدى بناته لشخص قرطاجي يدعى اذربعل احد القادة الكبار للجيش القرطاجية، و من عائلة هانيبال، القائد العظيم الذي كاد يهزم الرومان و يحتل روما لولا الظروف المناخية التي حالت دونه، كما و أن عم ماسينييسا " اوزالسيس " كان متزوجا بإحدى قريبات " هانيبال " المذكور.

و إن حفيد ماسينييسا من ابنته المتزوجة بالقرطاجي اذربعل، كان قائد الجيش القرطاجي أثناء الحروب البونيقية الأخيرة. و إن آلاف من الأمازيغ من صفوف ماسينييسا، و من صفوف الرومان قد انضموا إليه لنصرته عندما أحسوا بأنه مقبل على الهزيمة أمام الرومان و بأنه سيهان و يحتقر إذا ما انهزم. و لم يكونوا يريدون له مثل هذا المصير و في عروقه دماء امازيغية مهما قيل عن الجهة التي يقاتل عنها.

و في هذا السلوك الأمازيغي النبيل ما فيه من العبر و الدروس تتعلق بالشخصية الأمازيغية المفعمة بالخصال الحميدة النبيلة، و القيم الإنسانية الرفيعة.

هناك نسبة من الناس ببلادنا لم يسعفهم الحظ أن ينالوا نصيب من المعرفة التاريخية الصحيحة، يعتقدون خطأ أن الشعب الأمازيغي قليل العدد و الكثافة السكانية، و ربما كان شعبا فتيا حديث العهد في هذا الوجود، لا يشترك في العراقة التاريخية مع بعض الحضارات القديمة كالحضارة الفرعونية و الإغريقية و الهندية و الصينية وغيرها من الحضارات التي يستشهد بها بصفتها مرجعيات للتدرج الإنساني في سلم التحضر و التطور. و إلى هؤلاء المحرومين من الثقافة التاريخية و غيرهم ممن لهم نصيب من هذه الثقافة، و لكنهم سيئوا النوايا و القاصد فلا يريدون أن يحتفظوا إلا بما يخدم نواياهم هذه، ناهيك إن يدعوا إلى نشر و بث الحقيقة بين العامة و الخاصة، حقيقة التاريخ، قلت إلى هؤلاء سقت هذه المقتطفات الصحيحة الأكيدة من تاريخنا الطويل. و أرجوا أن تتاح لهم قراءتها.

### الأمة الأمازيغية كثيرة الكثافة السكانية

يرى المؤرخ \*بروكوب\* الذي كان كاتباً شخصياً للقائد البيزنطي \*بليسير\* أن شمال إفريقيا فقد من سكانه في عهد الأمبراطور \*جوستيليان\* خمسة ملايين ضحية في مقاومتهم ضد الأمبراطورية البيزنطية. انه لرقم ذو دلالة كبيرة على مدى مقاومة الأمازيغ للقوى الأجنبية، حفاظاً على كيانهم و شخصيتهم المتميزة الفخورة بوطنها الكبير و شخصيتها القومية. 10"

إن هذا الرقم كاف لإفحام أولئك المفترين على التاريخ كذبا و المتهمين الجنس الأمازيغي بقلّة عدده و تجزئه، و نزوحه من بقاع أخرى غير هذه الأرض الطيبة،

التي احتضنت العش الأول للبذرة الأساسية، بدلائل و شواهد لا يتنكر لمصادقيتها الأمر عميت عيونهم عن رؤية اشعة الشمس الساطعة في رابعة النهار.

و يقول جيلبير مينبي في هذا الصدد - أن عدد سكان شمال إفريقيا في القرن الثالث الميلادي، كان يتراوح ما بين سبعة وثمانية ملايين نسمة" 11

أما مولود قايد، المؤرخ الجزائري فيرى بخصوص حضارة الرومان بشمال إفريقيا أن المؤرخين الغربيين الذين يعتبرون أنفسهم ورثة الحضارتين الأخرى و الرومانية لم يكونوا نزاها و هم يتناولون الوجود الروماني بشمال إفريقيا ذلك أنهم انسبوا كل ما أنجز خلال تواجدهم الاستعماري في بلاد الأمازيغ إلى العبقورية الرومانية وحدها دون مساهمة الأغلبية الأمازيغية الساحقة في تحقيق هذه المنجزات. و لذلك يؤكد قائلا " من الخطأ تسمية الحضارة التي ازدهرت في شمال إفريقيا طوال الحقبة الرومانية بالحضارة الرومانية فقط " لان الأمازيغ هم الذين بنوها و طوروها. أن أولئك الأمازيغ الذين يحملون الأسماء اللاتينية هم الذين بنوا المدن في شمال إفريقيا مثل جميلة، تيمقاد و سرت... فالفرنسيون هم الذين انسبوا هذه الحضارة الأمازيغية- الرومانية الى الرومان فقط، لانهم اعتبروا انفسهم ورثة هؤلاء الرومان "12

### الأمازيغ أهل مدينة رائعة

و تأكيداً لما سبق يقول " لوزوا بوليو" في كتابه " الجزائر و تونس " و هو يتحدث عن الغبن الذي لحق بالجزائريين تحت الحكم الاستعماري الفرنسي، مستنكراً ذلك معتبراً أن الجزائريين ذو شأن و عزة نفس و أصالة ائيلة و أنهم أجدر بالاحترام و التقدير مينا " أن هؤلاء السكان من جنس عريق، استوطنوا إفريقيا منذ زمن عتيق توالت عليهم في هذا القطر قرون، و اجيال، و هم اصحاب مدينة رائعة، يكونون هيئة اجتماعية منظمة، فيها جميع شروط الحياة و القوة، تعزز كل الاعزاز بنفسها و بفضل أخلاقها و عاداتها و ديانتها تنفر من الاندماج إلى أي جنس "13.

## عرف الأمازيغ حياة المدنية في وقت مبكر

و في نفس السياق يقول الدكتور عبد القادر جغول: إستفادت نوميديا من أصطول قرطاجة، و أصبحت سيده التجارة في البحر الأبيض المتوسط، حيث وجدت عملات عليها صوة " ماسينيسا" في كل من سبانيا، و فرنسا، و ايطاليا، و اليونان، و جزر إيجه، و يوغوسلافيا... و كان للنشاط الزراعي نتيجة جيدة هي ازدهار المدنية في النواحي الساحلية، و نشوء مدن داخلية صغيرة، و أصبحت شبكة المدن تتألف من أكثر أربعين مدينة ( 40 ) أشهرها "سيرتا" و "سالداي، و زاما" ( Cirta, Saldae, Zama ) . و قد بلغ عدد سكان " سيرتا" 150.000 نسمة إلي 180.000 نسمة في ذلك العهد، و نشاطها الحرفية و التجارية مزدهرة جدا، حيث أنها ملتقى القوافل الصحراوية ما بين السهول العليا و المدن الساحلية في " التل"، و هكذا أصبحت هذه المدينة ' سرتا' تنافس بقية مدن حوض المتوسط... أدى التوسع الاقتصادي إلي تطوير سريع في البنية الاجتماعية ، الذي أدى بدوره إلي الإقتصاد. و تمثل التطور في ثلاث إتجاهات: 1- تحضر القبائل 2- نمو العلاقات الاجتماعية غير القبلية 3- ظهور الملكية الخاصة للأرض ( في القرن الثاني قبل الميلاد)... و أدى تعميم الزراعة من جهة أخرى إلي وضع قانون ثابت للضريبة التي كانت تدفع عينا. و كان الملك يسيطر على التبادل التجارى. هذه القوة الاقتصادية المستقلة، كانت أساس بناء الحكم الذاتي..

و قد حاول " ماسينيسا" تحويل المجتمع القبلي إلي مجتمع طبقي لكنه لم ينجح تمام النجاح، فاكثفي بفرض سسلطة الدولة على القبائل المنتظمة. حاول خلفائه إتمام المشروع لكنهم اصطدموا بالسلطة الرومانية . و هؤلاء الخلفائهم : Micipsa، hiarbias, Jugurtha، فقامت تراث كثيرة دامت أكثر من قرن ضد الرومان".

المجتمع الأمازيغي عرف تقنيات الإنتاج قبل الغزو الروماني لبلاده:

" لم يصور الإستعمار الروماني طرق الإنتاج النوميدي، بل إكتفي بالإستفادة من مستوى الإنتاج الذي وصلت إليه نوميديا خلال مراحل بناء المم الك الأمازيغية. و بقيت النشاطات الإقتصادية على حالها:

زراعة، تربية المواشي، بينما حصل تطور طفيف على تقنية الإنتاج . إذ أن القرطاجين و النوميديين عرفوا الري، و لم يكن المشاريع المائية، كالآقنية، و السدود ، و الأبار التي جاءت بها روما شيئاً جديداً، بالنسبة الأمازيغ، بل أن روما رعت هذه المشاريع التي إبتدأ النوميديون. و التجديد الوحيد الذي جاء به الرومان هو دعم منشآت الطرق. إذن روما لم تحمل حضارة إلى المغرب. و هذا الأذعاء خرافة استعمارية، تتناقض مع الأبحاث التاريخية الملموسة" 15

### أجداد الجزائريين كونوا دولا حقيقة

" أجداد الجزائريين قبل إن يصبحوا مسلمين، أن يتعربوا جزئياً – قد عاشوا في مجتمعات تسيرها دول حقيقة، بعيدة كل البعد من أن تنسب إلى جاهلية من الجاهليات، فقد كانوا عبر دولهم في علاقات دائمة، تجارية، و تقنية و ثقافية و فنية مع الشعوب التي تحيط بالبحر الأبيض المتوسط بشكل واسع، و كذلك بالشرق الأدنى... الجزائريون هم الأغلبية الساحقة أمازيغ... بالرغم من تخريف و هديان أولئك المتفقين الأيديولوجيين الذين أرادو أن يجعلوا منهم يمينيين" 16

بلاد الأمازيغ جنة رعوية

أما "هومير" « Homère » الذي عاش في القرن السابع" أن بلاد الأمازيغ عبارة عن جنة رعوية تتعدى الوصف. وتمثل العصر الذهبي للإنسانية: قال خرفانتولد بقرون. العاج تلد ثلاث مرات في السنة. كان الناس جميعا يشبعون منشرب الحليب، و أكل الجبن و اللحم" 17

### الفن المعماري الأمازيغي

" إن معلم " إيمدراسن" « le Medracen » و كذا القبر الملكي أو " قبر المسيحية" يشهدان بأن هناك تفاعل بين معطيات « Données » محلية ( أمازيغية) و تقاليد إغريقية – هليينية- شرقية. تلك أولئك ينتمون إلى بوتقة ( creuset ) ميديتراينية كبيرة . عكس ما سيكون عليه الإستعمار الفرنسي بعد 1830 في الجزائر. حتي و أن كانت هناك عمليات عسكرية قادتها روما، فإن هذا الفتح conquête لم

يكن قطيعة (rupture) عنيفة و إنما كانت تواصلًا للتطور، و مواصلة لصلات جديدة، قديمة، تحت أشكال سياسية متجددة. لا تشكل حقا " نقلا للحضارة"

فقد كان هذا الفن يجانس في أشكاله الفن الإيجي، و اليوناني، و المصري، و جزر البحر المتوسط"18

الفن ظاهرة إعتيادية في الحياة الأمازيغية لا تخص النخبة فقط  
" ... لا شيء يطلعنا على إدارة الأملاك الخاصة أكثر من

الفسيفساء التي كانت تزخر بها منازل الأشراف الأمازيغ بالمدن أو الأرياف. و هذه الفسيفساء يمتد تاريخها من القرن الثاني إلى العهد البيزنطي. فالرسوم الدقيقة التي كانت تتفنن بها، يمكن الإستناد إليها لفهم النظام القار الذي كان تخضع له الحياة الفلاحية في إفريقيا إذ هي تعكس مظاهر الحياة المألوفة طيلة الإحتلال الروماني كله" 19

" إن للإنسان الأمازيغي استعداد فطري كبير للغناء، و الفنون،

يخترع لذلك شعر يناسبه، فإن القصة اللبية (الأمازيغية) أو الشباية التي يحدثها عنها أوريبيد « Euripide » و غيره من شعراء الأغريق في القرن الخامس قبل الميلاد لحجة دامغة على أن الأمازيغي كان يتعاطى الموسيقى. و الموسيقى يصبحها الغناء، و الغناء يستمد القاطنة المؤثرة من الشعر الساحر، المتدفق من أعماق منابع الطبيعة التي يعيش في حضنها الواسع حرا طليقا. و لم يتخذ قرص الشعر حرفة و إنما يقوله الجميع عفوا كلما سنحت لهم الفرصة ذلك" 20

و للبرهنة على دوام و استمرار القيم الأمازيغية و عادتهم، و

خلقهم القومي عبر الزمان المتدفق، نورد الفقرات التالية و التي تتحدث عن الفترة الإسلامية، أي ستة عشر قرنا بعد الذي تقصده الفقرة السابقة. من المؤكد أن المجتمع الأمازيغي نمت كثيرا من القابليات التي كانت كامنة فيه، لاسيما في م ظمار الفنون و المعاملات، و التفتح العقلي و العاطفي و الذي عنه قريحة الحواضر المتمدنة، و في مقدمتها بجاية. لقد أدخلت أطعمة و أعراف، و سلوكات متنوعة إلى أعماق المجتمع الحمادي. و كان التأثير الطبيعي ينتقل من البيئة المدنية إلى الحواضر الأخرى لاسيما الشعرية منها. أذ أن حركة الإتصال كانت تجري في

أغلبها عبر البحر خاصة بين المدن التي كانت الحمادية ترتبط بها إرتباطا عضويا مثل جزائر بني مزغنة ( العاصمة اليوم و التي كانت تسكنها و تحيط بها قبيلة أمازيغية كبير تسمى " بني مزغنة" المشتقة من مزغن) و المدينة، و تنس و غيرها من الحواضر التي أنشأوها أو التي حكموها في مرحلة التوسع و الإستبحار. لقد عكفت المدينة الحمادية يومئذ على صقل ذوق فني محلي في مجال الطرب، و المعمار، و الخط، و الاطعمة، و البروطوكول، و ما إليها. و إن أثار ذلك الصقل الذي تم برحاجة المزاج الأمازيغي، ليظهر في النبرة، و اللحن، و في الأمتداد و الهندسي، و في النكهة و في الترقيم النسيجي، و في التحلية التزيينية و في غيرها.

### الحمامات في المدن الأمازيغية

" كانت المدن حتى المتواضعة منها حريصة على أن يكون لها أكثر من حمام عمومي. و كانت الحمامات كثيرة بأفريقيا الشمالية. كانت الحمامات تحتل الحمامات تحتل مساحات كبيرة ، و حمام في جميلة يساوي 2600م 2 حمام لمبار = 3000م 2 حمام تيمقاد = 4000م 2 . هذه مجرد أمثلة " 21 ، ليعلم القارىء أن الحمامات العمومية لم تخل منها أية مدينة أمازيغية بحتة ، أو أمازيغية رومانية. و أن الإنسان الأمازيغي مشهور بشغفه الشديد بالنظافة و الطهارة و حسن المظهر. فهناك اعتقاد خاطئ مفاده أن الحمامات العمومية تعود تاريخيا إلى العهد التركي ، و أنها تحمل هذا الإسم لكونها من إنشائهم و إبداهم. فالحقيقة غير ذلك، و أن الأتراك بدورهم شجعوا هذه الظاهرة فيما بعد، أي في عصرهم، ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي" 21

### المدن الأمازيغية

" المدن ليست ظاهرة رومانية بحتة، بل أن هناك موروثا سابقا على روما أمثال: هيبون، ريقوس، سيرتا... بل هناك عشرات المدن كانت موجودة قبل الوجود الروماني. فحسب المؤرخ " بلين لانصيان « Pline l'ancien » كانت هناك في نهاية حكم أوغوست Auguste

30 مدينة حرة تسيرها الليبية – الأمازيغية libyques berbère كانت هذه المدن موجودة في تونس الحالية، و في نوميديا. و تم إحصاء 516 مجموعة سكانية طائفة لروما، و هي تعني مجموعة قبلية، و لكنها أيضا مدن و قري ... عدد كبير من هذه التجمعات السكانية المدنية، حافظت على مؤسساتها التقليدية الأمازيغية او البونيقية الأمازيغية في سنة 212 م عمم الأمبراطور كراكالا caracalla الأمازيغي الأصل المواطنة الرومانية على الجميع من أبناء جلدته"22

" إرتقى رجل من شمال إفريقيا الذي هو الأمازيغي المسمى سيثام سفير « septeme sevère » سنة 193 م ثم إنه كراكالا caracalla (السابق الذكر) إلى منصب الأمبراطورية و منذ ذلك الحين أصبحت المدن تتنامى بسرعة، و من أجل المدن على الإطلاق في العالم الروماني" 23

" ابتداء من القرن الثاني الميلادي، تغيرت الوضعية الكولونيالية السائدة في القرن الأول، فلم يعد هناك معمرين متميزون (priviliégiés) عن السكان المحليين في وضعية من الدرجة الثانية: أصبحوا يختلطون في المدن، و في الزواج، و في الحياة الإجتماعية، تحطمت الحواجز في تركية، رومانية، أمازيغية، عكس ما كان عليه الوضع في الجزائر الفرنسية 1820-1962 . و تلاحقت التطورات إلى أن أصبحت السيطرة في الأدب اللاتيني litterature للعنصر الأمازيغي المثقف ابتداء من القرن الثاني في القرن الخامس" 24

و سوف نخصص محاضرة للعلماء و الكتاب الأمازيغ الذين كتبوا باللغة اليونانية و اللاتينية إن شاء الله

### نخبة أمازيغية في الإدارة الرومانية

" لقد كان هناك عدد لا يستهان من الإطارات الأمازيغية الكفأة التي قلدت مسؤوليات كبيرة في الهرمية الإدارية الرومانية، ذلك أن هناك تسعين (90) سيناتور ( Sénateurs ) أمازيغيا من أصل ستمئة (600) سيناتور روماني في عهد les Antonim 192-196م لقد كان جزء



هام من النخبة الأمازيغية إنخرط في البيروقراطية الإمبراطورية. و لولا ذلك لما إستطعنا أن نفهم أحد الأباطرة العظام اللأمعين يعتلي باستحقاق عرش روما، يكون الأمازيغي الأصل . أول سينتام سيفر « Septeme Sevère ( الأنف الذكر) 25

و هذا لا يعني أن الأمازيغ المترومنين ظاهريا قد إندمجوا في الحضارة و الثقافة الرومان بيتين.../ إنما فعلوا ذلك تكيفا للأوضاع المستجدة، و هو تكيف مؤقت إلى أن تحين ظروف أخرى تساعد على الثورة، و تعيد الأمور إلى نصابها، و المياه إلى مجاريها، و المنكيف للأوضاع الطارئة إلى طبيعته الأصلية. و هذا ما سيؤكد النص الآتي:  
" ... و حتى نهاية القرن الخامس الميلادي ( تاريخ اندحار الرومان من شمال إفريقيا) لم يكن هناك اندماج حقيقي للأمازيغ في الرومان، ذلك أن الأعراف المحلية les droits coutumiers ظلت نافذة المفعول و باقية ثابتة كما سوف تستمر عبر القرون و كما كان الحال على سبيل المثال في بلاد القبائل خلال الإحتلال الفرنسي، حيث أقيم، و طبق القانون العرفي القبائلي في القرن العشرين" 26

الأمازيغ تكيفوا نسبيا مع الحضارة الرومانية لكنهم لم يدوبوا فيها  
أما مرسال بنالو " Marcel Benalou « فيقول : أؤكد على وجود قاعدة عميقة إفريقية أمازيغية في شمال إفريقية. و التي غضبها و صدمها الغزو الروماني، حيث وجد ميل طبيعي دائم لدى المجتمعات الأمازيغية Sociétés Amazighes إلى مقاومة المظاهر الرومانية. و هذه الفكرة تؤكدها كثير من الوثائق، و تتمثل هذه المقاومة ليس فقط في شكلها المادي العسكري، و إنما أيضا في شكلها الثقافي. و تتجلى هذه المقاومة في المظاهر تتعلق بالمقدس، ذي سمات محلية تقليدية، و لا علاقة لها بالمعايير الرومانية فذلك نوع من المقاومة مثل استمرار عبادة " ساتورن الإفريقي « Saturne Africain » أو la Déa africa ومعناها « la Déesse afrique » « بل حتى ديوموري « Déi Mouri (Dieux Mauras) إلى جانب البقايا البونيقية...»

و هناك استمرارية بين ما قبل العهد الروماني و ما بعده. أي أن العهد الروماني لم يشكل قطيعة بين ما قبل وجوده و ما بعده." 27.

### اللغة الأمازيغية

" في ثوقا " « Thugga » على بعد مئة كلم من الحدود الجزائرية التونسية اليوم، هناك معبد sanctuaire مهدى " لماسينيسا" المؤلوع بعد مماته. و يحمل هذا المعبد كتابة مزدوجة اللغة : بونيقية-ليبية أي أمازيغية.

في نوميديا كانت البونيقية تكتسي طابع اللغة شبه الرسمية (semi – officielle) و مع ذلك فإن ال لغة الأمازيغية ظلت لغة الشعب. و لا شك أن هناك استمرارية لهذه اللغة منذ أزمنة غابرة. و اللغة الليبية تعني اللغة البربرية ( الأمازيغية) و التي استعملت منذ ما قبل التاريخ في البلاد المغرب. و بالرغم من محليتها فإننا لاحظنا وجود قرابة لغوية parenté linguistique بين اللغة الأمازيغية و اللغة المصرية\_ القديمة لعهد الفراعنة، اللغة التي دامت في مصر في شكل القبطية التي اندثرت لتحل محلها العربية. و لم تعد تظهر على ضفاف النيل إلا في الكنيسة القبطية" 28

" اللسانيون أطلقوا إسم " الشامية- السامية « chamito-semitique » على الأسرة الغوية التي تنتمي إليها الأمازيغية. و أبرزها إنتمائها إلى اللغات المسماة

الكوشية « cauchitique » التابعة للقرن الشرقي الإفريقي" 29

### إندماج اللغة و الثقافة القرطاجيتين في الأمازيغية

" لقد أكد لنا التاريخ أن الأمازيغ قد بقوا كل أمد الاحتلال الروماني محافظين كل المحافظة على لغتهم، على ت قليد البونيقية القرطاجية التي إندمجت في الأمازيغية إندماجاً تاماً" 30  
"توصل الأمازيغ منذ فجر التاريخ إلى إختراع أبجدية تعتبر متقدمة بالنسبة للخط الهيروغليفي و المسماري...و مما لا يمكن إنكاره أن الاتين قد تعلموا الخط الأمازيغي، ثم تركوه ليأخذوا الخط الفينيقي لإنتشاره في

حوض البحر المتوسط. لأنه خط التجارة و التفاهم العالمي آنذاك. بينما إستمر الخط الأمازيغي مستعملاً في بلاد المغرب إلى الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي، و أستعمل على نطاق واسع في جميع المناطق المغاربية و الحقيقة أن إختراع الأبجدية الأمازيغية يدلنا على مدى قابلية أهلها و قدرتهم العلمية، و تفوقهم المعرفي "31

" في جنوب البلاد نجد ضخوراً عليها نقوش كثيرة فقد عثر في "ناحية قالمة" على صور للأسد و لإبن أوى، و للخنزير البري و للغزال و للنعام. و في ناحية وهران عثر على صور للفيلة، و الأسود، و الصيادين، على رؤوسهم أكاليل من الريش، و مسلحين بالقصي و السهام. و عثر أيضاً على نقش لجمال مصحوب بخط تيفيناغ، و لكنه يعود إلى وقت أقرب، إلى العهد الليبي الأمازيغي. إلا أن آثاره الفنية لم تتعدى الإنسان و الحيوانات، و الشمس و الخطوط الهندسية، فلا إثر للصور النباتية فيما أكتشف من آثار ذلك العهد. و قد أستعملت في هذه الرسوم عدة ألوان من أحمر إلى أصفر حديدي إلى أخضر زيتي"32

### إتحاد و تعايش اللغتين الأمازيغية و البونيقية

"يشهد القديس أوغسطين St Augustin بأن إتحاد و تعايش اللغتين الأمازيغية و البونيقية(القرطاجية)" - la symbiose Berbéro-Punique كانت لا تزال حية في نوميديا عشية الغزو الوندالي سنة 429م. و ليس مستحيلاً أن يكون الشعب يتحدث لغة un idiom مستعارة في أن واحد من الأمازيغية و البونيقية، و على أية حال المرور من واحدة إلى أخرى.

فالوطنية اللغوية لم تكن آنذاك من تخيل الشعب، سواء في عهد ماسينييسا أو أوغسطين"33

"أفريقيا الشمالية هذه كانت لها وحدتها اللغوية: كان الناس يتحدثون اللببية Lybique le و منها اشتقت اللغة الأمازيغية الحالية لكن التأثير القرطاجي كان عميقاً بها، و اللغة البونيقية كانت جزءاً منها و نرى ذلك في الرصيد اللغوي"34

## الممالك الأمازيغية الكبرى مملكة سيفاكس

حدودها: بدأت مملكة سيفاكس لموريطانيا الشرقية، يحدها غربا وادي ملوية، و من الشرق مدينة بجاية، و من الجنوب "جيتوليا". إتسعت مملكته حتى بلغت نوميديا سنة 205 قبل الميلاد، غير أن نوميديا لم يدم إنطوائها تحت حكم موريطانيا الشرقية إلا سنتين ثم انفصلت عنها. بلغت دولته عظمتها سنة 230ق م.

عاصمة الدولة: صيغة أو "صيقة" و هي مدينة كبيرة قرب نهر تافنة شمال تلمسان.

**قبيلته:** من المحتمل جدا أن يكون من قبيلة "زناتة" بالمغرب الأوسط(الجزائر حاليا). كانت زناتة من أكبر القبائل بموريطانيا الشرقية. كان أجداده من سادة قبيلة زناتة، و من رؤسائها الكبار.

**شخصيته:** كان رجلا متفقا، متين الخلق، عالي الهمة. كان جميل الخلق، بهي الطلعة، و سيم الهيئة، قوي الجسم و الشخصية. علمه، و ثقافته، و حنكته جعلته يبقى في الحكم مدة سبعة و عشرين سنة.

و إسم سيفاكس أو سيفاكس إسم أمازيغي بحت، فهو يعني " المحروس " " المحمي "، " المسلح ".

كان سيفاكس طموحا إلى حد جعله عازما على توحيد جميع القبائل الأمازيغية تحت سلطانه، غير انه لم عجز على ضم قبيلة "زاوارة" و قبيلة "صنهاجة" اللتان كانتا مستقلتين، هادنهما و ربط معهما علاقات سلم و تعايش.

**منجزاته:** شجع العلم و نشره في مؤسسات مثل التي توجد بقرطاجة. شجع الفلاحة، و الصناعة، و التجارة. أحصى الأملاك و الملاك و فرض الضرائب لخزينة الدولة. عرفت فترته ازدهارا إقتصادييا بلغ حد التصدير لقرطاجة و روما. بني القصور الفخمة، و وسع المدن الصغيرة و القديمة. و أنشأ الساحات العمومية بالحدائق الجميلة. بني ميادين السباق "الطنازيا" (التي نبتناها اليوم، و هي تعود إلى ذلك العصر). جلب المياه إلى المدن و أقام بها حمامات عمومية، و متاجر، و نوادي مختلفة، و شجع الفن بمختلف أصنافه، بما فيه الغناء... نعم الغناء، و لم تكن الحياة

الحضارية في مملكته أقل مما عليه في قرطاجة. بنى جيشا قويا، بلغ تعداده في معركة زاما التي أعان فيها البونيقيين ضد الرومان ستين ألف جندي. و يبدو أن هذه القوة هي التي شجعت على التحرش بماسينيسا، فأدى به هذا الغرور إلى ما أُل إليه من الخسائر و الإنكسار، و ذلك جزاء من لا يراعي مبادئ الإخاء و الأتحاد و التعاون مع الإخوان ضد العدو الحقيقي المتربص بالجميع و المتمثل في الرومان، ذوي الأطماع التوسعية الإستعمارية.

### ماسينيسا

#### من هو هذا الرجل العظيم؟

يعتبر ماسينيسا واحد من أشهر الملوك الأمازيغ الجزائريين القدماء و من أعظم زعمائه. كان أبوه يسمى قايا « gaya » ملك نوميديا و عاصمته قيرتا "سيرتا" قسنطينة اليوم. نشأته: نشأ محبا لوطنه: غيور عليه، مدافعا عنه: و قد شارك في محاربة خصم والده و منافسه " الملك صيفاكس"، أكبر ملك عرفه التاريخ بنوميديا، و سن " ماسينيسا" آنذاك لم يتجاوز السابعة عشر. و منذ ذلك الحين تألق نجمه بين أبطال التاريخ الجزائري بل المغربي. خلف أباه بعد موته على العرش. كان أول أمره مواليا للقرطاجيين. لما رأى من قرطاجة تهاونها بشأنه، و عدم مبالاتها بحقوقه الشرعية في الولاية على عرش أبيه، غضب لذلك، فأصبح مستعدا لكل شيء مقابل إسترجاع ملك أبيه و تعزيز أركانه، فساءت العلاقة بين الطرفين إلى حد العداوة. و بفضل حنكته الحربية و ذكائه الحاد أصبح أكبر مخطط للعمليات الحربية و التنظيمات العسكرية.

كان يحضر المعارك بمهارة و خطط محكمة، ثم يقود المعارك بنفسه رغم تقدمه في السن. إستمر في كفاحه ضد قرطاجة أكثر من عشر سنوات، و انتهى الخصام و العراك بينهما بإلنتصار عليها إنتصارا ساحقا. مكنه من توحيد مملكة "نوميديا" التي إمتدت من الجزائر الحالية و إلى تونس الحالية. أقام علاقات تبادل المصالح مع دول حوض البحر الأبيض المتوسط جميعها. و قد إعتد في ملكه على قاعدة

## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

اقتصادية و إجتماعية ثابتة، خاصة و أنه كان في حاجة إلى مصادر مالية ثابتة، بعد أن كون جيشا بريا قويا و أسطولا بحريا عصريا بالنسبة لذلك العهد. لقد تحدث المؤرخان المعاصران له بوليب، سترابون عن مشارعه الزراعية الناجحة، و عن محاولته توحيد الأمازيغ، و نقلهم من الحياة القبلية إلى حياة المواطنة الشاملة.

الحروب التي خاضها ماسينيسا دامت خمسين ( 50 ) سنة أغلبها و قعت ضد قرطاجة

وكان هدف هذه الحروب إسترجاع كامل الأراضي الأمازيغية التي كان يعتبرها مغتصبة أشهره ذه المعارك التي خاضها لإسترجاع الأراضي، و قعت في التواريخ التالية:

193 قبل الميلاد غزا فيها أراضي مجردة.

182 ق.م إحتلال الأراضي التي أرجعتها قرطاج للملك "صيفاكس"

162 ق.م بسط نفوذه على الأراضي القرطاجية الواقعة في سهول مجردة

174 ق.م إحتل سبعين مدينة في الأراضي التونسية الحالية

153 ق.م إحتل الهضاب العليا الواقعة في توسكا.

كان شعار "ماسينيسا" في كل هذه الحملات و غيرها " إفريقيا

للإفريقيين"

- وفاته: توفي "ماسينيسا" عن سن تجاوز المئة ( 100 ) سنة. و دفن في

قبره المعروف به إلى الآن "بالخروب" على بعد 16 كلم بالجنوب

الشرقي من سيرتا/قسنطينة الحالية" تاركا مملكته الواسعة موزعة بين

أبنائه الثلاثة: مسيبسا، قلوسة، مستنبعل<sup>35</sup>

بعض منجزات ماسينيسا باختصار:

أسس جيشا بريا و بحريا قويا-كون جهازا للدولة يعتبر عصريا بالنسبة

لذلك الزمن. تمتعت دولته بجميع عناصر السيادة:

-حدود سياسية-شعب موحد و ميغانس ذو شخصية متميزة-علم للدولة.

-لغة شعبية مشتركة و مستعملة كتابة-عملة نقدية مضمومة ب اسمه ذات

شعارات مميزة-خزينة عمومية تغذيها التجارة و الضرائب المنتظمة

- إصلاح زراعي كبير ساعد الأمازيغ على الاستقرار، ف أدى إلى أن

تصبح بلاده " مطمورة قمح" فائض على الإستهلاك المحلي يصدر

## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

الفائض الى روما و بلاد اليونان و جزر إيجه، و بلدان الحوض المتوسط.

- و يؤكد المؤرخان " يوليب و ستيرابون " هذه الحقائق بنى مدن اخرى الى جانب توسيع و تجميل مدينة " سيرتا".

- ظل يقود المعارك بنفسه الى حدود 86 سنة من عمره. توفي سنة 146 ق م.

- بارغم من علاقات العداء و الحروب مع القرطاجيين، فقد كانت هناك علاقات أخرى سلمية بل علاقات المصاهرة. و حسب المؤرخ أبيان فان اوزاليسيس " (عم " ماسينيسا" كان متزوجا باحدى قريبات " حنبعل" و خلاصة القول ان هناك تجانسا في المستوى الحضاري بين الشعبين الأمازيغي و القرطاجي اللذين هما في حقيقة الامر شعب واحد في أغليته أو على الأقل مختلطين إختلاطا كبيرا يكاد يكون اندماجيا).

## الممالك الأمازيغية في عهد الوندال 430-534م

إن عوامل نشأة هذه الممالك التي تكونت في العهد الروماني، و تقوت في آخره. لقد عزم الأمازيغ أن يعيشوا أحرارا مستقلين، و أن ينشئوا ممالك و إمارات، و تقودهم في النضال لتحرير بلادهم بكاملها. و ما ثورات الأمازيغ على الرومان طوال وجودهم ببلاد الأمازيغ إلا دليل على هذه الرغبة في الإستقلال. و لما زال الرومان بفضل مقاوماتهم المستمرة، جاء الوندال، و كان عددهم قليلا، فلم يستطيعوا الهيمنة على جميع نواحي البلاد الواسعة و العريضة. تولى أمور الوندال ملكهم "جنسريق"، فأحسن إلى الأمازيغ و تقرب منهم يريد المصالحة و التعاون، فهادنهم و أرخى لهم العنان. فوجد الأمازيغ فرصتهم، فأنشأوا ممالكهم. و هناك من يسميها إمارات في كامل انحاء "ثامازغا" أي بلاد الأمازيغ، و كانت إمارات عديدة إنطلق معظمها من الجبال ثم توسعت. و كانت الممالك الناشئة في العهد الوندالي ثمان(08):

- 1- مملكة هوارة و لوانقا في شرق مدينة طرابلس و ملكها "قابايون"
- 2- مملكة قفصة في جنوب تونس. لم يذكر التاريخ إسم ملكها الأول.

## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

- 3- مملكة الفراشيش في وسط تونس الحالية و عاصمتها هي "ثالة" و ملكها هو "أنطلاس بن عنفان"
- 4- مملكة النمامشة في شرق جبل أوراس. و ملكها هو "قطزينااس"
- 5- مملكة أوراس، و ملكها يسمى "بيداس"
- 6- مملكة الحضنة و ملكها "أرتياس"
- 7- مملكة الجدار في جنوب شرشال و غربه، و جبال الظهره و الونشريس و ملكها "ماتينااس" أو "ماصينااص". و كان هذا الملك يلقب بملك الأمازيغ و الرومان. و كان الرومان الذين فضلوا البقاء ببلاد الأمازيغ بعد زوال دولتهم يلجأون إليه ليحتموا به من فتك الوندال بهم. و كانوا يخضعون لهم و يعترفون بسيادته عليهم. و كان من أقوى الملوك الأمازيغ. و يعتقد انه من قبيلة صنهاجة في شرق مدينة الجزائر.
- 8- مملكة الطاوة و صافار في تلمسان و اقاليمها. و ملكها يسمى "مازونا" و قد أنعشت هذه الممالك الأمة الأمازيغية، فرفعت رأسها، و إسترجعت أغلب الأراضي الخصبة التي إستولى عليها الرومان. و صار شعار هذه الممالك: "أرض الأمازيغ للأمازيغ. و عزمتان تموت لإدعاء لوطنها"<sup>37</sup>

**لتواصل التاريخي:** يقول الدكتور عبد القادر جغلول في كتابه "مقدمة في تاريخ المغرب القديم و الوسط" و هو بصدد الحديث عن مملكة "جدار Djeddar" "و تأسيس دولة إسلامية بربرية(أمازيغية) في تاهرت (تيارت اليوم) و التي عاشت من 761م إلى 911م ليس مجرد صدفة. فقد عرفت هذه المنطقة في القرنين السادس و السابع حكم مملكة بربرية قوية و هي مملكة جدار". و تأسيس هذه الدولة يكمل مشروع بناء الدول الذي عرفته الشعوب البربرية(الأمازيغية). صفحة 49 من الكتاب المذكور. و يضيف الدكتور جغلول قائلاً:

" تأسيس الممالك الأمازيغية الثمانية المذكورة خلال الغزو الوندالي دليل آخر على عدم تفكك النظام السياسي و الإجتماعي الأمازيغي خلال الإحتلال الروماني. فالشعب الأمازيغي ( هو يستعمل البربري) تحرر منذ وقت طويل من الإستعمار الروماني. و محاولات الوندال أو البيزنطيين لإعادة الإحتلال لم تتعد بعض المناطق الساحلية الشمالية.



## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

و عند دخول العرب وجدو شعبا غيورا على إسقلاله و له بنيته .  
إن المقاومة التي أبداها الأمازيغ للجيش العربي، و هذا الصراع بين  
الطرفين، ما هو إلا استمرار للصراع النوميدي الكبير للحصول على  
الإستقلال "

و يضاف " هذه الممالك الثلاث " الطاوا " جدار " و " أوراس "  
تشكل ثلاث نقاط قوية ستكون منطلقا لحركة توحيد المغرب الأوسط. و  
بيدا ان هذه الحركة ولدة عشية قدوم جنود العرب و المسلمين. و نستند  
في ذلك على أمرين:

الأول ، إذا حصلت المعارك الحاسمة بين الأمازيغ و المسلمين  
في الأوراس، فإنها امتدت حتى المولوية و "ابن الأظهري" يدعوننا  
للإعتقاد فضلا عن ذلك بأن " الكاهنة " كانت تمارس سلطة على الأقل  
معنوية على غالبية بلاد المغرب "بعد تمضية بضعة أيام للراحة في  
القيروان، سأل حسن بن نعمان الأهالي عن كون أكثر الأمراء سيطرة  
في تونس و شرق الجزائر ( إفريقيا ) بغية كسر شوكته او إجباره على  
الإسلام، فأخبره أن امرأة تدعى " الكاهنة " تسكن الأوراس يخشاها  
روم إفريقيا و يطيعها كل الأمازيغ و إن قتلتها أخضعت كافة أنحاء  
المغرب دون منافس أو مقاوم.

و هكذا كان وضع المغرب، مستقل في غالبيته و مستعد لبناء نظام ما  
فوق القبلي و لو بأشكال متباينة. المصدر السابق ص<sup>36</sup>.

## القيم الأمازيغية الثابتة

"و أما تخلق البربر (الأمازيغ) بالفضائل الإنسانية، و تنافسهم  
في الخصال الحميدة، و ما جبلوا من الخلق الكريم، مرقاه الشرف و  
الرفعة بين الأمم، و سبب المدح و الثناء من الخلق، من عز الجوار و  
حماية النزيل، و رعي الذمم، و الوفاء بالقول و العهد، و الصبر على  
المكاره، و الثبات في الشدائد، و حسن الملكة، و الأغضاء عن العيوب،  
و التجافي عن الإنتقام، و رحمة المسكين، و بر الكبير، و توقير أهل  
العلم، و حمل الكل، و كسب المعدوم، و قرى الضيف، و الإعانة على  
على النوائب، و علو الهمة، و إبانة الضيم، و مشاققة الدول، و مقارعة

الخطوب، و غالب الملوك، و بيع النفوس لله في نصرة دينه. فلهم من ذلك أثار نقلها الخلف عن السلف. لو كانت مسطورة لحفظ منها ما أسوة المتبعية من الأمم. و حسبك ما إكتسبوه من حميدها، و إتصفوا به من شريفها، إن قادتهم إلى مراقي العز، و أوفت بهم على ثنايا الملك، حتى علت على الأيدي أيديهم، و مضت في الخلق بالقبض و البسط أحكامهم... الخ"<sup>39</sup>

المصدر: كتاب العبر لأبن خلدون/ج6/ض104/طبعة بولاق/مصر  
أورده علي دبوز في "تاريخ المغرب الكبير"/ج 1/ص90/ط1/مطبعة  
عيسى الباي الحلبي و شركاؤه. 1964  
أن القيم التي تحدث عنها ابن خلدون في هذا النص هي أخلاق عامة ثابتة، أصلية، تتبع وجودها الفعلي، المعيشي عبر أقوال السلف و عبر معاشته لها في علاقاته الطويلة مع الأمازيغ في جميع اقطارهم حكاما و محكومين، نخبة المجتمع و عامته. إنها إذن قيم عامة ثابتة، متجذرة في النفسية و العقلية و السلوك الفعلي للإنسان الأمازيغي في كل العصور. و قد خصص للفترة الإسلامية قائمة أخرى من القيم لم نوردها هنا عمدا، لكون محاضرتنا المتواضعة تتعلق بفترة ما قبل الإسلام عموما.

### الهوامش و المراجع:

1. من كتابنا "معطيات أساسية عن الحضارة الأمازيغية. مطبعة دار الخطاب بن عجال بودواو. 2006. ص5.
2. إسماعيل العربي. الأصالة العدد16. 1973
3. مولود قايد. الأمازيغ في التاريخ. ج 12. منشورات ميموني. الجزائر. 1990
4. أحمد توفيق المدني. محاضرة ألقاها في الملتقى الثاني عشر للفكر الإسلامي في باتنة من 07 الى 14/09/1978
5. المهدي البوعبدلي. تاريخ الجزائر عبر العصور. ض125. الأصالة العدد14. 1973
6. هشام الصفدي. مجلة الأصالة العدد14. 1973
7. هشام الصفدي. مجلة الأصالة العدد14. 1973

8. الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمان. المغاربة في مصر في العصر العثماني 1517-1798 منشورات المجلة التاريخية المغربية ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر. تونس 1982
9. علي دبور. تاريخ المغرب الكبير. مطبعة عيسى الحلبي و شركائه. ص 137.
10. ملود قايد. المرجع السابق.
11. جيلبير ميني Gilbert Menier في: Algérie des origines من ما قبل التاريخ إلى مجيء الإسلام. منشورات بارزاك الجزائر. 2007 ض 101.
12. مولود قايد. المرجع السابق ص 7.
13. فرحات عباس. ليل الإستعمار. ترجمة: بوبكر رحال. مطبعة فصالة المحمدية. المغرب. بدون تاريخ. ص 65
14. الدكتور عبد القادر جغلول. مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم و الوسيط. ترجمة فضيل الحكيم. دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع. الجزائر. ض 12
15. الدكتور جغلول. المرجع السابق. ض 16
16. جيلبير ميني. المرجع السابق. ص 16
17. جيلبير ميني. المرجع السابق. ص 36
18. مولود قايد. المرجع السابق ص 35
19. أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية. تعريب محمد ميزالي و البشير بن سلامة. النشرة الرابعة. الدار التونسية للنشر 1983. ص 225
20. مولود قايد. المرجع السابق ص 34
21. أندري جوليان: المرجع السابق. ص 247
22. جيلبير ميني. المرجع السابق. ص 71
23. جيلبير ميني. المرجع السابق. ص 71
24. جيلبير ميني. المرجع السابق. ص 85
25. جيلبير ميني. المرجع السابق. ص 85
26. جيلبير ميني. المرجع السابق. ص 87

ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

27. جيلبير ميني. المرجع السابق. ص 89
28. جيلبير ميني. المرجع السابق. ص 48
29. جيلبير ميني. المرجع السابق. ص 48
30. توفيق المدني. المرجع السابق.
31. إبراهيم شرفي + جموعي مشري. في كتاب مدرسي ثانوي.
32. محمد الطمار. الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع. الجزائر 1983
33. جيلبير ميني. المرجع السابق. ص 48
34. جيلبير ميني. المرجع السابق. ص 64
35. الدكتور السليمان. مجلة التاريخ. العدد 21. المركز الوطني للدراسات التاريخية 1986
36. الدكتور عبد القادر جغلول. المرجع السابق. ص 35
37. علي دبوز. المرجع السابق. ص 426
38. الدكتور عبد القادر جغلول. المرجع السابق. ص 41
39. ابن خلدون. كتاب العبر. طبعة بولاق. مصر. أورده علي دبوز في المرجع المذكور له. ص 104

## خريطة الممالك السمرقندية في المغرب في القرنين الخامس والسادس المسيحيين



- مقياساً للمسافة : ١٠٠ ميل
- ١ مملكة: هوزارة ولوثة (مملكة قايابوت)
- ٢ مملكة: قفصية
- ٣ مملكة: الفرجانيش (مملكة الفنادس)
- ٤ مملكة: الأنشاس
- ٥ مملكة: أوراس
- ٦ مملكة: الجصبة (مملكة ارتيباس)
- ٧ مملكة: الجبار (مملكة ماستيباس)
- ٨ مملكة: الفناءة وماقار (مملكة مازونته)

تقلت الخريطة من كتاب مدينة المغرب العربي للاستاذ أحمد صفيح ، مع زيادات وصلات صفح ، وقد نقلها الأستاذ أحمد صفيح من كتاب (الوندال وأفريقيّة) لجنس بيسيان كوكو رتوا .

ملاحظة : بورطانية وجيولانية ، وسرانية ونقصة وبرطانية ،

وسوسة ، وجانية ، والساقوة وقالة بالانجليزية .

اسم الملكين : مملكة الفناءة يسمى ملكها (موزيباس)

ه يوطس ، ملك أوراس ، يسمى أيضا (بيلاس)

## التوبونيميا الأمازيغية في مناطق بسكرة وسوف ووادي ريغ

د. العربي عقون  
جامعة منتوري – قسنطينة

### مقدمة

اسم المكان (Le Toponyme) يحمل هوية المكان ولذلك فإنه في غاية الأهمية، وقليلة هي الدراسات المهمة بتوبونيميا<sup>(38)</sup> الشمال الأفريقي الذي يتعرض تاريخه إلى تأويلات تخرج به عن إطاره بل قد يصل الأمر إلى حدّ إحلال تاريخ بديل محلّ الحقيقة التاريخية الساطعة، ومع أنّ التحولات التي يعرفها أي بلد قد تقلب فيه بعض العناصر رأساً على عقب إلا أنّ الحقيقة تمتلك دائماً قوّة الصمود والبقاء لتظلّ راسخة ثابتة.

لقد عرفت توبونيميا الشمال الأفريقي ظاهرة تأثرت بها تأثراً بالغاً، وهي في واقع الأمر ظاهرة ثقافية متمثلة في ازدواجية اللغة التي اتسعت وتसारعت منذ الحركة المرابطية، التي وزعت طلبتها على عموم القبائل والأرياف مما زاد من انتشار اللغة العربية الشفوية المسماة اليوم "الدارجة" وهي لغة ذات طابع شمفريقي<sup>(39)</sup> متميّز ومنذ تعايشت في بلادنا لغتان : الأمازيغية والدارجة.

هذا التعايش نتج عنه ظهور أجيال مزدوجة اللغة كمرحلة نحو الاستعراب النهائي-في عديد المناطق - وفي تعايش اللغتين كانت كل واحدة تترجم الأخرى، ولئن كانت الأمازيغية هي الأصل<sup>(40)</sup> فالدارجة كانت ترجمة لفظية لها ولذلك امتدّت هذه الترجمة إلى ترجمة ما لا يترجم وهو ترجمة الأعلام الجغرافية لكن من حسن الحظ فلتت بعض الأعلام

اسم مكان و (Topos) كلمة إغريقية تتكوّن من كلمتين: (Toponymie) التوبونيميا<sup>(38)</sup> والكلمة في مدلولها الاصطلاحي تعني الدراسة اللغوية والتاريخية لأسماء الأماكن.

<sup>(39)</sup> Nord af. في مقابل الاختصار الفرنسي

<sup>(40)</sup> CHAKER (Salem). Langue et écriture berbères au Sahara. In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°32, 1981. pp. 71-75.

بسبب الافتقار إلى معناها لأنها أصبحت كلمات غير متداولة وفي لغة غير مكتوبة كان صعبا معرفة معناها لتتم ترجمتها إلى الدارجة ولذلك ظلت على حالها وبصيغتها الأصلية الأمازيغية<sup>(41)</sup>.

هذا الوضع هو الذي وجدت عليه العديد من أسماء الأماكن في هذه المنطقة بحيث ظلت بصيغتها جيلا بعد جيل لتكون شاهدا على تعمير أهلي أمازيغي متواصل إلى اليوم لهذا الفضاء الشاسع المتمثل في كلّ الصحراء الكبرى التي تشملها توبونيميا أمازيغية واضحة المعالم إلى حدود نهري النيجر والسنغال.

### أهمية التوبونيميا:

يعكس اسم المكان صفات ومميزات المكان أو وقائع وأحداث كان مسرحا لها ويمكن تصنيف أسماء المكان إلى :

- أسماء من البيئة البدوية كأسماء الحيوانات الأليفة، والنباتات التي تتموقع على طول خطوط الانتجاع (Transhumance)، أغبال Aghbel Agbal (عين ماء) / تيلغمت Tilghemt Tilgemt : النافقة.
- أسماء حيوانات متوحشة منقرضة (تالة وّار Tala n'war / Tala Ouar / عين الصيد).
- أسماء نباتات برية مثل : سندروس Sendrous Sendrus .
- أسماء من بيئة زراعية كأسماء الأشجار المثمرة (تيزدايين Tizdayin Tizdayin) (لغروس Leghrous Legrus)
- أسماء المنشآت الفلاحية مثل البئر Anu Anu والساقية Tarya Tarya ou Targa Targa nig Targa، والحدائق: ثيبحيرين Tibhirin Tibhirin .
- أسماء قبائل وعشائر مثل ورماس Ourmès urmas فرقة من قبيلة أولاد سعود بمنطقة سوف وأمثلة في هذا الباب كثيرة.
- أسماء مرتبطة بالمعتقدات والأساطير والقديسين وأماكن العبادة وهي كثيرة : تابليت Tabalit Tabalit وتعني الأرض التي

<sup>(41)</sup> هذه الظاهرة انفردت بها الفترة العربية الإسلامية لأن الفترة الرومانية رغم انتشار اللاتينية إلا أنّ أسماء الأعلام ظلت أمازيغية، انظر :

- GALAND (Lionel), Les toponymes doubles et leurs ethniques dans l'Afrique antique (note d'information, Comptes-rendus des séances de l'année... - Académie des inscriptions et belles-lettres, Année 2002, Volume 146 Numéro 2, pp. 677 - 680

- يسقيها إله المطر، **ثامزا Tamza Tamza** وتعني الغولة،  
 تيمسفيدة **Timesguida Timgida** وتعني المسجد.
- أسماء مرتبطة بالظواهر الطبيعية كالعواصف والجفاف مثل :  
**ثيزي ن واظو Tizi n'wado Tizi n'wadho** التي عربت إلى  
 فج الرياح، وواد بويقور ( **Oued Bouïqqor Oued buyqqur**)  
 ويعني الواد الجاف.
  - أسماء مرتبطة بالتضاريس وهي الأكثر انتشارا فهناك **ثيزي Tizi Tizi** (الفج) و**تاويريرت Taourirt Tawrirt** (الجبل قليل الارتفاع) و**أدرار Adrar Adrar** (الجبل الكبير) و **تام ن تيط Tam n'titt Tam n'titt** (حاجب العين) الخ.
- هذا المجال من الدراسات حديث وهو من المجالات الداعمة لعدد من العلوم الإنسانية فضلا عن كون أسماء الأماكن تمثل أداة في خدمة الإدارة لتنظيم الإقليم وتوثيق مختلف الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية وربطها بمكان تفاعلاتها، إذ لا تختلف بالنسبة لمختلف الأماكن والمواقع والمدن والتضاريس عن الحالة المدنية بالنسبة للأشخاص<sup>(42)</sup>، كما تحتفظ التوبونيميا بمعلومات قيّمة، ويمكن أن نوضح ذلك بإيجاز في ما يلي :
- **التاريخ العام** : يستفيد الباحثون من أسماء الأماكن باستخراج مادة تاريخية منها، من خلال المواقع والمدن التي تحمل أسماء قبائل أو وقائع أو أشخاص.
  - **الجغرافيا التاريخية** بحيث يمكن إنجاز خرائط تربط الأسماء بمواقعها بدقة.
  - **العلوم اللغوية** بحيث يمكن في حال اللغات التي فرضت عليها الشفوية أن تسترجع جزءا هاما من معجمها كما هو حال اللغة الأمازيغية.
- أولا/ منطقة بسكرة**
- سنتصدر هنا على أسماء المدن والقرى على أمل أن نتوسع لاحقا عندما تسمح الفرصة لجرد كل الأسماء المتعلقة بمختلف تضاريس المنطقة، وهي أسماء لا يزال بعضها يحتفظ بشكله القديم الأصيل:
- **اوماش Oumache Umac** : هو اسم لفرقة من قبيلة أغاليك الزيبان وهو بصيغته الأمازيغية دليل على أصولها الزناتية، ثم

(42) BOROUMI (Aicha), La toponymie: outil culturel pour un développement durable en Méditerranée et dans les zones fragilisées Le domaine libyco-berbère, pp 265-270 ; <http://www.wikimazigh.com/wiki/Encyclopediemazighe/Encyclo/ToponymieOutilCulturel>



أصبح الاسم علما على القرية التي تُعمرها هذه الفرقة والتي تحمل هذا الاسم كما هو معروف<sup>(43)</sup>.

- اورلال **Ourellal / Urellal** يمكن أن يكون الاسم مركب من كلمتين: اور وتعني الحدّ أو الحدود أو الشاطئ و آل التي تعني البحر وقد أدغم حرف الجرّ 'N' الذي يفيد الملكية في اللام ولعلّ المقصود بالكلمة هو حدّ بحر (الرمال) وقد وجدنا في منطقة مستعربة اسم قرية نعتبره ترجمة لاورلال وهو حدّ الصحاري وهذه القرية غير بعيدة من هنا بل وتقع في مجالات انتجاع القبائل الجيتولية التي تعتبر هذه التوبونيميا من آثارها.
- **امليلي M'lili M'lili** الكلمة من الجذر **MLL MLL** وبالرجوع إلى اللهجات المتداولة إلى اليوم تعني مكان اللقاء **امليلي Amlili**، لكن وجدنا تقاربا بينها وبين المعسكر الرئيسي لسلسلة التحصينات الرومانية أو ما يعرف بالليمس النوميدي وهو معسكر **جيميلاي (Gemellae)** الذي يقع بجوار **امليلي** الحالية.
- **بادس Bades / Bades** هي الآن قرية في أقصى شرق ولاية بسكرة، وردت في النصوص اللاتينية بصيغتي **Beddath** و **Ad Badias** وكانت أحد أهمّ المراكز التي أنشئت على خط الليمس النوميدي الجنوبي، والاسم من الجذر **BDD BDD** الذي أعطى عديد الصيغ ومنها اسم العلم **بدة Bedda** الذي لا يزال شائعا في المجتمع التارقي ويقابله في العربية اسم **القائم**، واسم آخر لبلدة من الفترة الرومانية هو **Bida municipium**<sup>(44)</sup>، كما توجد فرقة في قبيلة أيث فراوسن تحمل اسم **ايبيدة Ibida** بصيغة الجمع كما نرى، ولا يمكن في هذا المقام إغفال اسم الأمير الاوراسي **يابداس (Yabdas)** وفي النصوص الأثرية الليبية وجد

<sup>(43)</sup> Oumache, fraction et cheikhat de l'aghalik des Ziban, commune indigène et cercle de Biskra (subdivision de Batna), dép de Constantine ; voir : Dictionnaire des Communes de l'Algérie, PIERRE FONTANA, IMPRIMEUR-ÉDITEUR, Alger 1903, p. 153.

<sup>(44)</sup> Gsell (S.), Atlas, VI, 104 - الجمعة ن'صهريج حاليا، أنظر:

الاسم في صيغة **بَدَّاسِن** (45) **Beddasen** أي القائم عليهم (أو على شؤونهم) وأخيرا لاحظنا كيف أنّ الاسم نجا واستمرّ إلى الفترة الإسلامية (الملك الزيري باديس) وهو مستمرّ إلى الآن كاسم عائلي (ابن باديس) أو كاسم أشخاص.

- **بسكرة Biskra / Beskert** : يدور نقاش كبير حول الاسم، وإذا كانت صيغته اللاتينية هي **Vescera** فإن حرف V ينطق في اللاتينية كحرف الواو في العربية (46) فيكون نطقها اللاتيني حينئذٍ : **وسكرا** ، وكثيرة هي الأسماء الأمازيغية التي تبدأ بالبادئة : ( او ) : **Suffixe ou** (47) وقد وجدنا في جغرافية بطليموس ما يثبت وجهة نظرنا فقد رسم الاسم هكذا **Oueskether** ولكن وقع في التصحيف (**métathèse**) بحيث جعل الثاء قبل الراء والأصح في الأسماء الأمازيغية أن يكون الاسم بهذه الصيغة: **وسكرت Oueskerth** (48)، أما بليينوس فيشير إليها بعبارة **Viscera** **Natio** أي قبيلة فيسكرا (49) مما جعل ديزانج يؤكّد بأن اسم المدينة هو اسم القبيلة التي تسكنها (50).

- **دوسن Doucen Dousen** في الواقع هذه التسمية واضحة ومستعملة إلى اليوم في كلّ اللهجات الزناتية وهي ظرف مكان وتعني حرفيا **أسفلهم** أو **تحتهم** وتتألف من :

(45) DR Reboud, Recueil d'inscriptions libyco-berbères. Mémoires de la société française de numismatique et d'archéologie sous la direction de L. Léouzoung Le Duc. Section d'épigraphie. 1870. pl. n° 237.

(46) الفرنسي مما يجعل نطق الاسم بحرف V ولكن حرف الباء ينطق في بعض اللهجات كحرف الباء صحيحا أيضا.

(47) يحاول بعض ذوي النزعة السامية فرض تأويل فينيقي على الاسم مع أننا لم نجد الدليل على وصول القرطاجيين إلى منطقة بسكرة والأوراس عموما، والدليل هو أنّ القوافل التجارية التي كانت تنقل سلع الصحراء إلى قرطاج وباقي المصارف الفينيقية كانت في يد قبائل المنطقة الصحراوية مما جعل قرطاج تبحث عن طريق بحرية تصل من خلالها إلى أفريقيا جنوب الصحراء لتتحرر من سيطرة تلك القبائل، وفي هذا السياق جاءت رحلة حنون الشهيرة.

(48) وهو ما انتبه إليه غوستاف مرسيبي حيث قال:

، أنظر : Ptolémée dit Oueskether, par métathèse du th et de l'r.  
- Mercier (G.), Etude sur la toponymie berbère de la région de l'Aurès, XI Congrès Int.Orinet, Section Egypte et Langues Africaines, Paris 1897, pp.173-207.

(49) Pline, Histoire naturelle, V, 37.

(50) DESANGES (Jehan), Catalogue des tribus africaines de l'antiquité classique à l'ouest du Nil, publication de la section d'histoire, Dakar 1962, p. 141

- دو / du / du وتعني تحت أو أسفل.  
 - س / s / S وهو ضمير الغائب  
 - ن / N / N وهي علامة الجمع  
 فيكون المعنى اللفظي : **تحتهم** أو **أسفلهم** ولعل الإشارة إلى المكان المسمى دوسن بهذا الاسم لأنه يقع أسفل الجبال أو أسفل سكان جهة محاذية له شمالاً، لأنه سهل مستوٍ منخفض جنوب سلسلة الأطلس الصحراوي، ولعل الاسم يعني الجنوب، فنحن نرى اليوم استعماله بمعنى الجنوب في قولنا : **تافريقت ن'واڭا Tafriqt n'wadda Tafriqt n'wadda** : أفريقيّا الجنوبية.

- **فرفار Ferfar Ferfar** بتفخيم حرف الراء قد يكون بمعنى تدقق المياه<sup>(51)</sup>، ومنها اشتق اسم نبتة ذات أوراق خشنة خضراء تفترش الأرض وهي عشبة طيبة تدخل في تحضير بعض الأدوية التقليدية ويعرفها الجميع محافظون ومستعربون باسم تافرفرة.
- **تاهودا Tahouda Tahuda** وردت في اللاتينية بصيغة أخرى هي تابوديوس Tabeudius ، ولا نعرف كيف تمّ تصحيف الاسم لتقلب الباء في تابوديوس إلى هاء في تاهودة أو تهودة، وإذا حذفنا علامة الرفع اللاتينية ( Nominatif ) us تبقى لنا التسمية الامازيغية تابود أو تابودا Tabuda وهذه الكلمة تعني نبتة من جنس الأسل (Joncs) تصنع منها الحصر (Nattes) ، ولا تزال الكلمة متداولة وهي في القبائلية بصيغتي Abuda و Tabuda في المفرد و Ibuda و Thibudiwin في الجمع<sup>(52)</sup>.
- **زعاطشة** : هذه التسمية تدلّ على الساكنة التي تعمر المكان والكلمة جمع تكسير في العربية من المفرد زعطوش وهذا الاسم في ذاته قد

(51) المفردات الامازيغية في هذا المجال قريبة من بعضها : أفرفر A ferfer / A ferfer تعني تدقق الماء من أسفل أي من الأرض. وأشرشر A cercer / A cercer تعني سقوط الماء من أعلى. وأهرهر A herher / A herher تعني صوت ماء النهر. وتشارك هذه المفردات في تفخيم حرف الراء.

(52) Nait Zerrad (Kamel), Articles de linguistique berbère : mémorial Werner Ycichl, éditions L'Harmattan, Paris 2002, pp. 473-474.

- يكون لبيبا مرونا بإضافة علامة الرفع في الأسماء اللاتينية + Zat US ليكون هكذا Zatus فينطق عند العامة زعطوش كما ينطق عمروش وحمدوش ... الخ.

### ثانيا / منطقة سوف

هذه المنطقة كما هو معروف عبارة عن منخفض ما بين شط ملغيغ شمالا وحمادة ريغ غربا والعرق الكبير الشرقي في الجنوب والشرق، ورغم قسوة المناخ فإن توفر المياه الجوفية هو العامل الرئيسي الذي جذب الإنسان للاستقرار وهو أيضا العامل الذي ساعده على قهر الطبيعة.

المنطقة هي موطن الجيتول وأحفادهم الزناتيين الذين اندمج فيهم كل الوافدين فيما بعد، باعتبارهم القاعدة المجتمعية الأولى، ورغم التحولات الثقافية واللغوية إلا أن الوفاء للتبونيميا القديمة لا يزال قائما، وهو خير نموذج لوفاء الخلف للسلف.

- **سُوف (SUF / Suf)** في كل اللهجات الامازيغية يحمل هذا الاسم ذات المعنى مع بعض الاختلاف في الصيغة ويقابله في الدارجة كلمة **واد**<sup>(53)</sup> التي تحمل معنى خاصا يتفق وطبيعة أودية الشمال الأفريقي التي تمتاز بالجفاف خلال انقطاع الأمطار والامتلاء إلى حد الفيضان خلال سقوط الأمطار، وهكذا نرى أن مدلول عبارة **واد سوف** في الدارجة هو **واد الواد**. صيغت من سوف كلمة **أسيف**<sup>(54)</sup> المستعملة بذات المعنى في جهات أخرى من الجزائر والمغرب وكذا كلمة **تاسيفت** أي الواد الصغير.

(53) الوادي في العربية لا تتوافق في المدلول مع كلمة واد في لهجات شمال أفريقيا لأن الوادي في العربية الفصحى تعني **Vallet** أي الأراضي المستوية على ضفتي النهر ولذلك فإن وادي النيل ليس هو نهر النيل فالوادي هو الأراضي الزراعية على ضفتيه والنهر هو مجرى الماء. كما هو الحال في قرسيف وهي مدينة في المغرب الشرقي فالكلمة تتكون من قر وتعني بين أو ما بين وسيف : أسيف أي الواد أي بين الواد أو بين الأودية وقد وجدنا تعريب هذا الاسم في مناطق مستعربة بصيغة بين الويدان.

- **كوينين / Kouinine / Kwinin** : قد يكون الاسم صيغة تصغير لكلمة كانون الأمازيغية المعروفة والمتداولة في الدارجة أيضا، وفي القمص الشعبي أنّ ساكنتها من أولاد سعود هم الذين أطلقوا على المكان هذا الاسم.
- **تاغزوت Taghzout Tagzut** : الاسم أمازيغي في صيغة المفرد المؤنث، وقد وجدنا هذا الاسم في عديد المناطق ومنها مركز بلدية في ولاية البويرة، والكلمة تعني أرض مستوية في سرير الوادي، وقد عربت التسمية في عديد الجهات بكلمة الولجة<sup>(55)</sup>.
- **سندروس Sendrous Sendrus** اسم لموقع أثري وهو اسم لعشبة طبية معروفة في شمال أفريقيا، اسمها العلمي **Tetraclinis Articulata**. ولا نظن أن سندروس كلمة عربية مع أنها وردت في الكتب العربية بذات الاسم.
- **قمار Guémar Gemar** : هذا الاسم أيضا واضح الدلالة، ومع أنّ الكلمة غير متداولة الآن إلا أنّ المقاربة مع اسم وادي الرمال (سوف قمار<sup>(56)</sup> Souf Guémar Suf Gemar) الشهير الذي يشقّ مدينة سيرتا (قسنطينة) يجعلنا نسترجع الاسم في مدلوله الدقيق وهو الرمل أو الرمال في صيغة الجمع<sup>(57)</sup>.
- **ورماس Ourmès Urmas** : فرقة في مشيخة أولاد سعود ويدلّ اسمها على انتماؤها إلى زناتة، انتقل الاسم إلى القرية التي تسكنها.

### ثالثا/منطقة وادي ريغ.

تمتد جنوبي منطقة بسكرة إلى الغرب من منخفض واد سوف، وتتكون من عدد من الواحات أكبرها واحة تقرت وسكانها مستقرون راسخون في الاستقرار والنشاط الزراعي، ولا ريب أنّهم ينحدرون من **الميلانو** –

<sup>(55)</sup> ومنها قرية الولجة (بوالبلوط) في قبائل القلّ (Kabylie de Collo) التي يكون اسمها الأمازيغي قد عرب بهذه الصيغة.

<sup>(56)</sup> ورد في البكري باسم سوف جمار وحرفه النساخ لعدم معرفتهم بمدلول الكلمة،

<sup>(57)</sup> كما وجدنا نفس الاسم وهو سوف قمار Souf gmar بذات المعنى أي واد الرمال في منطقة الراشدية (المغرب).

**جيتول** (Mélano gétules) الذين ورد ذكرهم في جغرافية سترابون أي أنهم مزيج من الأمازيغ (من قبيلة ريغة والحشاشنة) ومن الأفارقة وتدل ملامحهم على ذلك الامتزاج ومع أنّ الأغلبية منهم استعربت اليوم إلا أنّ مجموعة مهم لا تزال محافظة على أمازيغيتها (الريغية) وخاصة أهالي بلدة اعمر.

- **تقرت** (Touggourt ou Toujjourt / Touggourt = Toujjourt) احتمالاً من الجذر UJR الذي يعني الأكبر وهذا ينطبق على تقرت باعتبارها أكبر واحات وادي ريغ<sup>(58)</sup>.
- **تاندلة** (Tandela) تخفيف للأصل الأمازيغي ثانضلت (Tandalt) وتعني المقبرة، وهذه التسمية واضحة المعنى ولا ريب أنّ المكان كان في الأساس مدفناً للبدو فلما تمّ الاستقرار واحتراف الزراعة والبستنة بقي المكان محافظاً على تسميته السابقة.
- **تماسين** (T'macine) هذه التسمية في لهجة زناتة والريغية فرع منها، هي في صيغة الجمع ثيماسين مفرداً تامست (Tammest / Tammet) وتعني الوسطيات ويتعلق الاسم إذن بوضع المكان التضاريسي أو الزراعي، لكن بالرجوع إلى اللهجة التارقية نجد أنّ الكلمة تعني الأرض الملحية ولعل هذا بسبب وجود سبخة مجاورة، لكن الكلمة الريغية أرجح باعتبار لهجة السكان الريغية الزناتية هي السائدة، أمّا بعض التأويلات التي نجدها عند العامة التي تريد تحريف الكلمة وإعطائها مدلولاً ساذجاً فقد رأينا أن نصرف النظر عنها<sup>(59)</sup>.
- **تاملاحت** (Tamellaht / Tamellaht) إذا اعتمدنا معنى تماسين في اللهجة التارقية فإنّ كلمة تاملاحت ما هي إلا ترجمة عربية ممزّعة لها لأنّ الكلمة تعني الأرض الملحية أو المجاورة لسبخة وهذا المدلول ينطبق على طبيعة المكان الذي أقيمت عليه البلدة.

<sup>(58)</sup> وقد استشهد مرسيبي بعبارة من أمازيغية جبل اوراس : Uma iujer umak أي أخي أكبر

من أخيك، أنظر : Mercier (G), p. 275 -

<sup>(59)</sup> ذكر لي الصديق تبيرماسين خلال ملتقى بسكرة الذي قدّمت فيه هذه الورقة أنّ الكلمة يمكن أن تكون جمع لـ: تيماسنت أي النبع الملح المحتوي على ثيسنت وهو الملح في الأمازيغية ؟.

- تامرنا (Tamerna / Tamerna) : الصيغة الأمازيغية واضحة في الاسم وقد تعني الزيادة ، من الكلمة ثيمرثيث ؟
  - تيقديدين (Tiguedidine / Tigdidin) قرية في بلدية جامعة والكلمة كما نرى في صيغة الجمع فكيف يكون مفردا أهو تاقدّيت أو تاقدّيت بادغام الدال الأخيرة في التاء التي بعدها، وتاقدّيت أو تايدّيت في لهجة أخرى تعني القرية وإذا اعتبرنا الكلمة صيغت من الجذر GDD فالمدلول فعلا هو القرب، ويمكن أن نجد في كلمة تاقدّيت (مركز بلدية في ولاية بويرة) وهي في صيغة المفرد كما نرى ما يعزّز فكرة أنّ تيقديت أو تاقدّيت هي مفرد تيقديدين لكن جذر تيقديت (Tigdit) هو من حرفي GD كما أنّ المعنى وهو البومة بعيد عن خصائص التوبونيميا إلا في حال وجود اسم لصيق مثل عين أو ذراع ( Ighil / Ighil) ... تمّ حذفه للاختصار ويبقى الترجيح بين القرب وطيور البوم مسألة قائمة.
- وهناك عدد من الأسماء لم يتسع المجال للبحث في مدلولها مثل :

● بنطيوس Benthious Bentius

● زقم Z'goum Z'gum

● طولقة Tolga Tolga

● ليانة Liana Liant

● سريانة Seriana Seriant

● ليوة Lioua Liwa

● قرطة Kerta Qerta

● تاكسبت Taksebt Taksebt :

● تبسبست (Tbesbest / Tbesbest)

والمواقع أنّ هذا المداخلة عبارة عن لفت انتباه، على أمل أن تسمح الظروف بالعودة إلى الموضوع بتوسع أكبر.

### خاتمة

تحمل توبونيميا المنطقة دلالات تاريخية لغوية اجتماعية، تتطلب العناية من قبل الباحثين وكذا من قبل الجماعات المحلية للمحافظة على أسماء الأماكن لأن طمس اسم أو استبداله باسم جديد بمثابة طمس صفحة من التاريخ.

بيبلوغرافيا الموضوع

- [1]. African Ethnonyms and Toponyms, reports and papers of the meeting of experts organized by Unesco in Paris, July 3-7, 1978.
- [2]. A. Basset, Du nouveau a propos de l'Ile de Fer (Canaries), Onomsatica, Vol. 2, No. 2, 1948, pp. 121-122.
- [3]. A. Basset, Sur la toponymie Berbère et spécialement sur la toponymie chaouia des Ait Frah, Onomastica, Vol. 2, No. 2, 1948, pp. 123-126.
- [4]. R. Capot-Rey, Glossaire des termes géographiques arabo berbères, Bull.Liais. Sahar. (Algiers), Vol. 8, No. 25, 1957, pp. 2-4; and Vol. 8, No. 26, 1957, pp. 72-75.
- [5]. D. M. Hart, Tribal and Place Names among the Arab-Berbers of NW Morocco: A Preliminary Statistical Analysis, Hesperis -Tamuda, Vol. 1, No. 3, 1960, pp. 457-511.
- [6]. A. Leriche, Toponymie et Histoire Maure, Bull. IFAN, Vol. 14, No. 1, 1952, pp. 337-343.
- [7]. A. Leriche, Terminologie géographique Maure, St.-Louis (Sénégal), Etudes mauritaniennes, 5.
- [8]. G. Mercier, Etude sur la toponymie berbère de la région de l'Aurès, XI Congrès Int.Orinet, Section Egypte et Langues Africaines, Paris 1897, pp.173-207.
- [9]. G. Mercier, La langue libyenne et la toponymie antique de l'Afrique du Nord, J. Asiat., Vol. 105, 1924, pp. 188-320.



[10]. V. Monteil, Notes sur la toponymie, l'astronomie, et l'orientation chez les Maures, Hesperis, Vol. 36, 1949, pp. 180-219.

[11]. V. Monteil, La part du Berbère dans la toponymie du Sahara maure, Notes Afr. IFAN, Vol. 45, 1950, p. 21 (also in Proceed. 3rd Congr. Topon. and Anthropon., Brux. 1949, pp. 478-479, Louvain 1951).

[12]. P. Odinet, Notes de toponymie marocaine, La Geog. 71, Vol. 4, pp. 205-219.

[13]. A. Pellegrin, Contributions a l'étude de la toponymie tunisienne: Note sur l'étymologie de Pheradi Maius, IBLA, Vol. 13, No. 50, 1950, pp. 203-206.

[14]. A. Pellegrin, Essai sur les noms de lieux d'Algérie et de Tunisie, (Supplément to IBLA (Tunis)), No. 45, 1949. [15]. A. Picard, Compléments à la toponymie Berbère, Onomastica, 1949, pp. 127-132.

[15] [http://www.wikimazigh.com/wiki/Encyclopedie\\_amzighe/Encyclo/ToponymieOutilCulturel](http://www.wikimazigh.com/wiki/Encyclopedie_amzighe/Encyclo/ToponymieOutilCulturel)

أول نواة لدولة بربرية في العهد الإسلامي:  
«كسيلة في القيروان»

زواتي إبتسام  
باحثة في التاريخ-منوبة تونس

لقد أشارت النصوص العربية إلى شخصية كسيلة بصفة تكاد تكون عرضية. وذلك في إطار الدراسات المهمة بالتاريخ لمنطقة المغرب منذ زمن الفتح، وتقديمها في الغالب غير منفصلة عن شخصيتي عُقبة بن نافع أو الكاهنة. ولكن الملتفت للانتباه في هذه النصوص هو واقع تصنيفها حسب الانتماء الجغرافي للمؤلفين (مغاربة ومشاركة). حيث نبئ كل شقّ منهما وجهة نظر منحازة في الغالب، فالنصوص المغربية بدت متعاطفة مع كسيلة فقدّمتها في صورة مشرقة واعتبرته بطلا. وعلى العكس من ذلك قدّمت النصوص المشرقية في صورة قاتمة - لأنه قتل عُقبة ابن نافع مؤسس القيروان وصحابة الرسول. ولكن كلا الطرفين أشارا بصورة باهتة إلى أمر هامّ قامت به هذه الشخصية وهو تركيزها لأول نواة لدولة محلية مسلمة في افريقية دامت لمدة أربع أو خمس سنوات من (64هـ إلى 69هـ/683هـ إلى 688م)<sup>60</sup>. ويعود ذلك

<sup>60</sup> - ذكرت العديد من المصادر أن كسيلة استقرّ بالقيروان مدة خمس سنوات أميرا على إفريقية والمغرب. أنظر: المالكي (أبو بكر عبد الله)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسآكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت. ج. I، 1983، ص. 46؛ ابن عذاري المرآكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج. I، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان و. إ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1948، ص. 30-31؛ ابن خلدون، العبر، مج. VI، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط. 2، 2003، ص. 128؛ ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ط. ثالثة، 1387 هـ، ص. 32.

بالأساس إلى ندرة المادة المصدرية المتوفرة وتضاربيها، ممّا فتح الباب أمام الباحثين للاستنتاجات المتنوّعة وربّما غير المتطابقة مع الواقع التاريخي والحقيقة العلمية. وقد يفسّر ذلك بغياب النصوص المحلية، ممّا سمح دائما بالأخذ عن النصوص العربيّة التي كتبت تاريخ الغالب وليس تاريخ المغلوب، فدوّنت أساسا للنُخبَة العربيّة، حيث جاءت الأخبار في هذه النصوص انتقائية، اقتصرت على تتبّع أخبار الولاة العرب بالمنطقة، ورُتبت الأحداث بصورة تكاد تكون مُتصلة بين فترة كلّ والٍ وآخر.

فهل يُمكننا من وراء استقراء المصادر العربيّة تبيّن القيمة التاريخية الحقيقيّة لهذه الشّخصيّة؟ لماذا أشارت النصوص إلى حدث تأسيس كسيلة لأوّل دولة محلية مسلمة بالمنطقة ثم صمّنت عن تقديم التفاصيل؟ وهل كانت حادثة مقتل عُقبَة بن نافع السبب الرئيسي في قتامة صورة كسيلة؟ ولكن ألم تقدّم نفس هذه النصوص صورة إيجابيّة ضمنيّة لكسيلة؟

عند التّدقيق في النصوص العربيّة التي تناولت تفاصيل الفتح العربي لمنطقة افريقية والمغرب، برزت شخصية كسيلة كمقاوم للوافد العربي ورافض للوقوع تحت سلطة خارجية. وقد ارتبط انطلاق المقاومة في تاريخ الفتوحات العربيّة باسم عُقبَة، الذي تصدّى لكسيلة والتي انتهت بحادثة استشهاد. أي أن الحديث عن زعيم المقاومة كسيلة ورد في إطار الحديث عن شخصية عُقبَة. وهذا يعني أن النصوص لم تهتم بأحداث المقاومة الأولى الذي قادها كسيلة ضدّ أبو المهاجر دينار في فترة ولايته على افريقية سنة 55هـ/674م. مع أن كسيلة لم يكن غائبا في الأحداث منذ البداية فقد ذكر ابن خلدون أنه والزعيم الذي قبله

---

- ومصادر أخرى نفت تماما دخوله القيروان وإرساء دولة بربرية مسلمة، لأنه قُتل مباشرة بعد مقتل عُقبَة بن نافع. أنظر: ابن خياط، تاريخ، تحقيق مصطفى نجيب فوّاز وحكمت كشلي فوّاز، دار الكتب العلميّة، بيروت - لبنان، ط. أولى، 1995، ص.157؛ ابن عبد البر القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، قسم III، تحقيق علي محمد الجاوي، مكتبة نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، د.ت، ص.1077؛ ابن الأثير، الحلة السيرة، ج. II، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط. ثانية، 1985، ص.330.

سكريد بن رومي بن مازرت قد أسلما أوّل الفتح ثم ارتدّا<sup>61</sup>، وذلك قبل قدوم أبو المهاجر نفسه. وهذا يعني أنّ التّصوُّص لم يُؤلِّ اهتمامها أيضًا بشخصيّة أبو المهاجر دينار باعتباره لا ينتمي إلى الأرستقراطية العربيّة فهو مولى لمسلمة بن مخلد الأنصاري. فمن هو كسيلة<sup>62</sup>؟

كَسَيْلَة، كَسَيْلَة، كَسَيْل 63، مع هذا التقلُّب الواضح في صيغة الاسم لا نعرف إن كان الإشكال يكمن في الاسم في حدّ ذاته باعتباره أنه غير مُنتشر لدى العرب أم أنّ نُطقه حسب الصّوتيات العربيّة غير مُتعارف عليه؟ أم يتحمل محققوا المخطوطات العربيّة مسؤولية القراءة الخاطئة لصيغة التسمية نظرا لرداءة الخط؟ ولكن يبدو أنه اسم متداول في المنطقة منذ العهد البيزنطي، ووجدنا ذلك في نص بيزنطي لبروكوب (Procopé)<sup>64</sup> الذي أورد اسم أحد القادة البربر (koutzina)، وربما يؤكّد ذلك ما نقلته التّصوُّص العربيّة على أن كسيلة كان مسيحيا، وذلك لتبرير علاقته بالروم بعد ذلك. وبعد مقتله أيضا، في عهد موسى بن نُصير ظهر قائد بربري يحمل اسم كسيلة مُجددا<sup>65</sup>. فهل أنّ انتشار هذه التسمية في فترات مُختلفة وارتباطها خاصّة بأسماء القادة يرمز إلى تسمية أم إلى وظيفة؟ هل هي تسمية تُطلق على كل من يتزعم البربر؟

وفيما يخصّ لقبه، لم يكن هناك أيضا اتفاق بين مؤلّفي المصادر العربيّة على أنّه «ابن ليوم»<sup>66</sup> أو «ابن بهرم»<sup>67</sup> أو «ابن لمزم»<sup>68</sup> أو

<sup>61</sup> - ابن خلدون، العبر، مصدر سبق ذكره، ج. VI، ص 127.

<sup>62</sup> - Talbi (M.), « Kusayla », *Encyclopédie de l' Islam*, t.V, nouvelle édition, G.-P. - 522-521, pp. 522-521, Paris 1986, Maisonneuve & Larose S.A., « كسيلة », دائرة المعارف التونسية، الكراس عدد4، بيت الحكمة، قرطاج- تونس، 1994، ص. 62-65.

<sup>63</sup> - ابن الأثير، الحلة، مصدر سبق ذكره، ج. II، ص. 327 و330.

<sup>64</sup> - Procopé (De Césarée), *La guerre contre les Vandales*, préface de Philippe

Muray, traduit et commenté par Denis Roques, Paris 1990.

<sup>65</sup> - ابن خياط، تاريخ، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 175؛ ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة،

تحقيق طه محمد الزيني، ج. II، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة 1967، ص. 55.

<sup>66</sup> - الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق منجي الكعبي، تونس 1968، ص. 49.

## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

«ابن أكرم الأوريسي بن المسوار»<sup>69</sup> أو «ابن كيزم»<sup>70</sup> أو «ابن كمرم»<sup>71</sup> أو «ابن لهزم»<sup>72</sup> أو «ابن أعزم بن المصور بن مستما»<sup>73</sup> أو «ابن لزم الأودي»<sup>74</sup> أو «ابن أقدم»<sup>75</sup> ... وهنا نتساءل أيضا إن كان هذا الاختلاف في تحديد لقب كسيلة الهدف من وراءه هو التشكيك في نسبه، حتى يبدو كما لو أنه لا جذور له، والحال أن النسب لدى العرب يعتبر مسألة جوهرية لاختيار القادة والولاة. فقد اكتفت المصادر بالإشارة إلى أنه "كسيلة الأوربي" أو "البرنسي" إشارة إلى انتمائه إلى قبيلة أوربة<sup>76</sup> وهي فرع من قبائل البرانس وهم من الحضرة، الذين وجدهم العرب عند قدومهم إلى المنطقة مستقرين غرب المغرب الأوسط بجبال الأوراس بإقليم الزاب (بمنطقة الجزائر حاليا)، إلى حدود منطقة "وليلي" Volubilis (ناحية فاس اليوم)، وكانت عاصمتهم تلمسان. وقد عدّهم ابن خلدون من أقوى قبائل البربر وأكثرها عددا وأشدّها بأسا<sup>77</sup>.

67 - النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج. XXIV، تحقيق حسين نصّار، مُراجعة عبد العزيز الأهواني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 1983، ص. 29.

68 - ابن عذاري، البيان، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 32؛ ابن عبد الحليم، كتاب الأنساب، ضمن كتاب ثلاث نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي، تحقيق محمد يعلى، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد 1996، ص. 38؛ ابن خلدون، العبر، مصدر سبق ذكره، مج. VI، ص. 127.

69 - الشاطبي، كتاب الجمال في أخبار الزمان، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، رقم 00207، ورقة 438.

70 - ابن خياط، تاريخ، مصدر سبق ذكره، ص. 245.

71 - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مج. IV، دار صادر، بيروت، د.ت، ص. 107.

72 - البكري، كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليفين، وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، المؤسسة الوطنية لترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، قرطاج، تونس 1992، ج. II، ص. 742.

73 - مجهول، مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباوية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط، ط. 1، 2005، ص. 194.

74 - ابن عبد البر القرطبي، الاستيعاب، مصدر سبق ذكره، قسم III، ص. 1077.

75 - مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق- بغداد، ص. 175.

76 - Bouzid (A.), « Les Awraba de Kusayla essai de localisation et d'identification d'une entité Berbère », I.B.L.A., 1996, t. 59, N° 178, pp.217-232

77 - ابن خلدون، العبر، مصدر سبق ذكره، ج. VI، ص. 172.

مع الاختصار الشديد في تقديم شخصية كسيلة نلقت الانتباه منذ البداية، أن النصوص العربيّة سلّطت الضوء فقط على شخصيّة عُقبة العربيّة فقّدمته بصورة رمزية مشرقة، فهو فاتح وقائد وأمير ومؤسس، وعندما قُتل وصَفّته بالشهيد وأصبح رمزا "مُقَدَّسًا"، ولتأكيد ذلك عمدت النصوص إلى تفخيم صورة كسيلة فهو من أكابر البربر، وزعيم الأوربة، ومملك... وذلك لجعله يبدو في نفس المكانة والرتبة والقيمة لعُقبه. أي أن هذه الصورة الإيجابية لكسيلة كان القصد من ورائها تقديم صورة إيجابية عن عُقبه. فهل كان من الممكن أن يقف عُقبه بمُختلف هذه الصّفات في مواجهة شخص آخر أقل رتبة ومكانة منه؟

نشير إلى أن فترة حضور كسيلة في الأحداث كانت طويلة نسبيًا، فقد تجاوزت مدّة 14 سنة (من 55هـ إلى 69هـ)، وهي فترة يمكن تقسيمها إلى ثلاث فترات متفاوتة الأهمية:

**في الفترة (1):** [من 55هـ إلى 62هـ (7 سنوات): حصل خلالها الحلف العربي - البربري. وكان حضور كسيلة فيها باهتًا]. خلالها قام أبو المهاجر دينار سنة 55هـ/674م بغزو إقليم الزاب الأهل بالبربر، وهناك اصطدم بمقاومة محلية بزعامة كسيلة، واستطاع أبو المهاجر أن ينتصر عليه فأسرّه، ثم عامله معاملة تليق بمكانته الاجتماعية، ونجحا معا في تأسيس تحالف بربري-عربي. ونعتقد أن وراء ذلك التحالف غاية ضمنية، فأبو المهاجر هادنه ليكون عونًا له، ويزوّده بالرجال والمعلومات عن المنطقة. وقد وضعه تحت ناظريه مُظهِرًا له المودّة والصدقة. فحصل بذلك على ولاء أخطر العناصر التي كانت تواجه العرب. أمّا بالنسبة لكسيلة، فنعتقد أنه تحالف مع أبو المهاجر رغبة منه في الإطلاع على أهداف هذا الوافد الغريب عوض معاداته مباشرة. فإلى أي مدى ساعد هذا التحالف على إرساء كسيلة لدولته فيما بعد؟

**في الفترة (2):** [من 62هـ إلى 64هـ (سنتين): حصلت فيها المقاومة وتكوّنت خلالها صورة قائمة لكسيلة]. سنة 62هـ/681م عاد عُقبه ابن نافع إلى المنطقة في ولاية ثانية فكيف وجد أحوال البلاد؟

في حالة هدوء:

- حيث صالح أبو المهاجر دينار البربر وعجم إفريقية<sup>78</sup>، وهو ما يعني أن البلاد عاشت نوع من السلام بين مختلف الفئات المتواجدة بإفريقية.
- إسلام الزعيم البربري كسيلة<sup>79</sup> الذي أفضى بدوره إلى إسلام مجموعة هامة من القبائل البربرية.
- وجود تحالف قائم بين العرب والبربر.
- فكيف كانت ردود أفعال عُقبة عند عودته لإفريقية؟
- قيّد نظيره قائد الجيوش الإسلامية أبو المهاجر دينار، وحمله معه في غزواته حتى وصل إلى أقصى الغرب<sup>80</sup>.
- أعاد إعمار عاصمته القيروان<sup>81</sup>، التي سبق وأن أخلاها أبو المهاجر، وانتقل إلى مكان قريب منها في وسط بربري عُرف باسم "تيكروان" أي "تاكروان" أو "دكرور".
- أهان كسيلة رافضا الاعتراف بزعامته على قبيلته أمام الزعامة العربية، فقد أمره بسلخ مجموعة من الأغنام<sup>82</sup>. وقد ركزت المصادر على صورة الإهانة، مبيّنة أسلوب عُقبة في أمره بذلك الفعل فقليل:
- نهره<sup>83</sup>، شتمه<sup>84</sup>، نقره<sup>85</sup> وتضمن النقر معنى الوكز بالعصا، وهي حركة

78 - «صالح [أبو المهاجر] بربر إفريقية وفيهم كسيلة الأوربي، وأحسن إليه، وصالح عجم إفريقية». أنظر: المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 33؛ ابن ناجي (أبو القاسم)، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، المكتبة العتيقة، تونس. ج. I، تحقيق إبراهيم شيوخ، تونس 1993، ص. 46.

79 - «... وأمر كسيلة البربري: أنه أسلم لِمَا وُلِّي أبو المهاجر إفريقية وحسن إسلامه». أنظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سبق ذكره، مج. IV، ص. 107؛ ابن عذاري، البيان، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 28-29؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ج. I، ص. 158.

80 - ربما اتخذ ذلك الإجراء تحسبا من ثورة جند أبو المهاجر ضده، خاصة وأنه شخصية قيادية لها مكانتها بالنسبة لجيوشه، كما كانت له قيمة رمزية لدى البربر على رأسهم زعيمهم كسيلة الذي عامله كند له.

81 - ابن عذاري، البيان، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 23؛ النويري، نهاية الأرب، مصدر سبق ذكره، ج. XXIV، ص. 26؛ ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 48.

82 - «فأمر عُقبة كسيلة أن يسلخ مع السلاخين». أنظر: المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 40-41؛ ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 53.

83 - ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 53.

عذيفة كان الغاية منها "تحقير" و"إذلال" هذا "الآخر"<sup>86</sup>، فجعله في رتبة المَسُود المُجَرَّد من خُصُوصِيَّاتِهِ وهُوِيَّتِهِ. وهو في الواقع تعبير ضمني عن إيديولوجيا "الأنا" العربي الذي يرى في ذاته تمييزاً عن بقية الأجناس. عكس اعتداد عُقْبَةِ بِنَفْسِهِ كـ"أنا" غالب منتصر في موقع قُوَّة، كما عكس تعصبه لانتمائه إلى العرق العربي. فجاء رد فعل كسيلة تعبيراً عن نظرتة إلى نفسه، الذي يرى بدوره أنه ليس أقلّ مرتبة منه ولا مكانة، لافتاً نظره ضمنياً إلى أنه سيّد القوم وعليتهم، ويجب أن تُحفظ مكانته مجيباً عُقْبَةَ بالقول: «أصلح الله الأمير: هؤلاء فتَيَانِي وغلْمَانِي يكفونني»<sup>87</sup>. وهو دليل تحليهِ بالأدب والحكمة وهي صفات القائد السياسي المُحَنِّك القادر على كبح انفعالاته إلى أن يحين الوقت المناسب. وقد نَقَذ الأوامر متحلياً بالصَّبْر والحكمة، واكتفى باستعمال يده بشكل حركي: «فكان كلما دحس في الشاة مسح يده بلحيته مما علق بيده من بلل ذلك وجعل العرب يمزّون عليه وهو يسلخ ويقولون له: يا بربري ما هذا الذي تصنع؟ فيقول: هذا جيّد للشعر فمر به شيخ من العرب فقال، كلا إن

<sup>84</sup> - ابن الأثير، الكامل، مصدر سبق ذكره، مج. IV، ص. 107؛ ابن تغري بردي، النجوم، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 158.

<sup>85</sup> - فعند العرب النقر هو نقر...نقره، ينقره، نقرأ: ضربه ونقر الرجل ينقره نقرأ: عابه ووقع فيه والاسم النقري والرجل يُنقر باسم رجل من جماعة يخصه فيدعوه يقال نقر باسمه إذا سماه من بينهم وإذا ضرب الرجل رأس رجل قلت: نقر رأسه، والنقر: صوت اللسان، وهو الزق طرفه بمخرج النون ثم يصوت به فينقر بالدابة لتسير...وقيل هو اضطراب اللسان في الفم إلى فوق وإلى أسفل وقد نقر بالدابة نقرأ وهو صوت يزعجه وفي الصحاح نقر بالفرس...ويقال أنقر الرجل بالدابة يُنقر بها إنقاراً ونقرأ. أنظر: ابن منظور (جمال الدين)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، طبعة أولى، 1997، مج. VI، ص. 242-243.

<sup>86</sup> - أشار ابن عبد الحكم إلى أنّ إهانة الزعامات البربرية كانت عادة تقليدية عند عُقْبَةِ، حيث استعمل الشدة والغلظة سابقاً مع الزعامات البربرية في إقليم برقة: قطع أنف أحدهم، وإصبع الآخر، ونكل بالثالث بإجباره على السير لمسافة طويلة في الصحراء للمثول أمامه. أنظر: ابن عبد الحكم، فتوح أفريقية والأندلس، تحقيق وترجمة البار قاتو، الجزائر 1947، صفحات: 60 و62 و64 (النص العربي).

<sup>87</sup> - المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 40-41؛ ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 53.



البربري ليتوعدكم...»<sup>88</sup>. فجاءت الحركة رمزية فيها وعد ضمنى بالانتقام، وبأنه لن يقبل بإهانة عُقبة له.

- سعى عُقبة بعد ذلك إلى اكتساح كامل المجال المغربي واصلا إلى أقصى حدّ له بالغرب وهو البحر المحيط<sup>89</sup>، مُتبعاً سياسة دموية عنيفة ضدّ البربر<sup>90</sup>، معتمدا تبريرا شرعيا لتقدمه وهو الجهاد<sup>91</sup> ضد الكفرة من روم وبربر، وقد أيدته التصوص في ذلك، وقدمته بصورة القائد المسلم الذي يجاهد في سبيل الله.

- **في الفترة (3):** [من 64هـ إلى 69هـ (5 سنوات): تأسست فيها إمارة بربرية مسلمة. وهذه الفترة الأخيرة هي التي سنحاول التركيز عليها في هذه المداخلة، لتبين المكانة الفعلية لكسيلة التي أوصلته للاستقلال بالحكم في المنطقة]. سنة 64هـ رجع عُقبة بن نافع من جولته في المغرب الأقصى التي حقّق خلالها انتصارات على الروم والبربر نظرا لتساقطها السريع والمباغت. وفي تهودة حدثت المواجهة بينه وبين جيش كسيلة، وانتهت بمقتله في مشهد بطولي مؤثر: 50 ألف مقاتل من البربر في مواجهة 300 من الصحابة والتابعين، بعد أن سرّح جيشه للعودة قبله إلى القيروان. ولكن إلى أي مدى تصحّ هذه الرواية؟ هل زيّت التصوص حقيقة حادثة مقتل عُقبة قصد تخليد أسطوره من ناحية، وتشويه صورة كسيلة من ناحية ثانية؟

<sup>88</sup> - نفس المصدر.

<sup>89</sup> - ابن عذاري، البيان، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 24-28؛ النويري، نهاية الأرب، مصدر سبق ذكره، ج. XXIV، ص. 28.

<sup>90</sup> - «...فالتقى المسلمون معوم فاقنتلوا قتالا شديدا، فلم يكن لهم بقتال العرب من طاقة فولّى الروم هاربين فقتلهم المسلمون قتلا ذريعا أبادوا فيه فرسان البربر، وتفرّق جمعهم وأقبالهم وقليل من نجا منهم». أنظر: ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 50.

<sup>91</sup> - فقد قال له يولييان حاكم طنجة أن البربر: «كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله، وهم بالسوس الأدنى، وهم كفار لم يدخلوا في النصرانية ولهم بأس شديد». أنظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سبق ذكره، ج. IV، ص. 106.

وعندما بلغ عُقبة البحر المحيط قال حسب رواية المالكي: «اللهم أشهد، أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك». أنظر: المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 39.

نعتقد أن عودة الجيوش الإسلامية إلى القيروان لم يكن امتثالاً لأوامر عُقبة، بل هو نتيجة الهجوم عليه من طرف البربر في شكل مجموعات مُتفرقة بمنطقة تهودة قصد تحرير كسيلة من أسرته، وهو تفسير منطقي لصمت المصادر عن تحديد توقيت فراره. وهذا الهجوم المفاجئ هو الذي شنت جيوش عُقبة المنهكين من فتوحاتهم بأقصى الغرب، ونحن نستند في ذلك إلى رواية المالكي التي تقول: «أقبلت النقرة إلى عُقبة، فقال له أبو المهاجر: "عاجله قبل أن يجمع أمره"»<sup>92</sup>. وإلا كيف سنحت لبعضهم فرصة الفرار وفداهم صاحب قفصة<sup>93</sup>، وهي معلومة لم تذكرها كل المصادر بل قالت أن كل من كانوا بصحبة عُقبة استشهدوا معه<sup>94</sup>. والذي يدعم هذه الفرضية هو أن كسيلة لزمه بعض الوقت لتزعم مجموعات البربر<sup>95</sup>، ولذلك قال البربر لكسيلة "لما تهرب من بين يديه ونحن في خمسين ألفاً وهو في خمسة آلاف؟"<sup>96</sup>، وهذا يؤكد أن البربر حينما هجموا على عُقبة كان في كامل جيشه وليس كما ذكرت النصوص أنه كان في 300 من الصحابة والتابعين. كل هذا يجعلنا نستنتج:

- أن كسيلة لم يأمر بالقتال مباشرة بل انتظر حتى يُنظم صفوفه، مُطالباً البربر بالانتظار قائلاً لهم: «إنكم كل يوم في زيادة، وهو في نقصان، ومدد الرجل قد افترق عنه، فإذا طلب إفريقية زحفت إليه»<sup>97</sup>. وهذا يعني أن قبائل الأوربة كانت تنفذ أوامره، وهو ما يعكس ضمناً عدّة صفات لهذه الشخصية: قوّة التأثير، قوة الشخصية، محبوباً من قومه، مُطاعاً. ونحن نعتقد أنه أجل قتاله لأنه كان يتجنب إراقة الدماء، خاصة وأن عُقبة

<sup>92</sup> - المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 41. وقد قال ابن ناجي: «... فزحف [كسيلة] إلى عُقبة فتحتى من بين يديه، وهو في خمسين ألفاً ونحن في خمسة آلاف لأنّ العسكر افترق...». أنظر: ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 54.

<sup>93</sup> - ابن عذاري، البيان، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 29.

<sup>94</sup> - المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 42؛ ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره،

ج. I، ص. 52.

<sup>95</sup> - «فزحف عُقبة إلى كسيلة فتحتى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه». أنظر: ابن الأثير، الكامل،

مصدر سبق ذكره، مج. IV، ص. 107.

<sup>96</sup> - المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 41.

<sup>97</sup> - نفس المصدر.

98 رجع من جولته بالمغرب بغنائم متنوعة منها أعداد كبيرة من سبي البربر، وقد أشارت النصوص أن السبي وصل إلى المشرق حيث بيعت الجوارى بثمن مرتفع<sup>99</sup>. ولكن كيف كان وقع انتصار كسيلة على من بقي بالقيروان؟

وفي القيروان وصلت أنباء انتصار كسيلة وتوجُّهه نحوها. واختلفت النصوص في إبراز رد فعل قادة الجيش بالقيروان على رأسهم زهير بن قيس البلوي، فمنها من قال أنه واجهه ثم انسحب منها بإرادته بعد مدة<sup>100</sup>، ومنها من قال أنه انسحب مباشرة<sup>101</sup>. في كل الأحوال لم يدخل كسيلة إلى القيروان إلا بعد هروب<sup>102</sup> العرب منها دون أن يعترضهم. فكيف ساهمت النصوص في التقليل من وقع حدث دخول كسيلة القيروان؟

### كسيلة في القيروان:

أشارت النصوص إلى حدث استقرار كسيلة بالقيروان لمدة أربع أو خمس سنوات، ولكنها تجاوزت التفاصيل المتعلقة بتلك الفترة مكتفية بإشارات عابرة، وهذا لا ينفي وقوع هذا الحدث الذي عكس مقدرة الذات البربرية على تحقيق استقلالها، وإزاحة الوافد العربي عن منطقة نفوذها<sup>103</sup>. ونحن نتساءل هنا إن كان بإمكاننا الكشف مثلا عن طبيعة

<sup>98</sup> - نفس المصدر، ص.38.

<sup>99</sup> - «وأصاب منهم نساء لم ير الناس في الدنيا مثلهن. قيل إن الجارية منهن كانت تبلغ بالمشرق ألف دينار أو نحوها». أنظر: ابن عداري، البيان، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص.27.

<sup>100</sup> - ابن عبد الحكم، الفتوح، مصدر سبق ذكره، ص.74 (النص العربي)؛ المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص.44-45.

<sup>101</sup> - وذلك بحرiveau من حنش الصنعاني قائد جيش أبو المهاجر الذي عاد إلى مصر رافضا الامتثال لأوامر زهير ابن قيس البلوي لمواجهة كسيلة وقال له: «لا! والله! ما نقبل قولك، ولا لك علينا ولاية!». أنظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سبق ذكره، ج. IV، ص.108؛ ابن عداري، البيان، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص.31؛ ابن أبي دينار، المؤنس، مصدر سبق ذكره، ص.29.

<sup>102</sup> - ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص.55.

<sup>103</sup> - وقد علق الأستاذ محمد الطاهر المنصوري على ذلك قائلا: «وهو ما يسمح بالقول بأن البربر وقفوا ضد العرب كغزة وأصحاب سلطان، يرفضون أن تكون الإمارة، مهما كان مستواها خارج

الحياة داخل القيروان تحت حكم كسيلة؟ قد لا نتوصل إلى إجابة على هذا السؤال، ولكننا سنحاول تبين الصورة العامة لفترة حكم كسيلة بالقيروان مُتنبِّعين المعلومات القليلة التي زوّدتنا بها المصادر العربيّة، من يوم دخوله إليها إلى يوم خروجه منها. وهو ما جعلنا نتيّن مجموعة من الحقائق التاريخيّة:

أن كسيلة عندما دخل القيروان وجد بها بقية من السكان المسلمين<sup>104</sup>، الذي أحسن معاملتهم دون إيثار للعنصر البربري، وأمنهم على أنفسهم وعلى أموالهم. فكيف يُمكن تفسير هذا السلوك تُجاه المسلمين؟ هل لأنه مُسلم لم يرتدّ عن الإسلام أم لأنه يعرف قوانين الحرب<sup>105</sup>؟ نحن نعتقد أن جزءا كبيرا منهم من موالى إفريقية باطرابلس<sup>106</sup> (بربر برقة) الذين خلفهم عُقبه، فلم يَخْرُجوا من القيروان وظلّوا بجانب أسرهم وربّما هم «أصحاب العيال»<sup>107</sup> الذين أشار إليهم ابن ناجي. ولكن المصادر العربيّة ربما حاولت التقليل من الحدث للتأكيد على أن كسيلة فرض سلطته على ضعاف المسلمين، فقبل أن من بقي بالقيروان «الشيوخ الهرمي والنسوان والأطفال وكل مُثقل بالعيال»<sup>108</sup>.

---

الأرستقراطية العربيّة القرشية - عُقبه قرشي - وكسيلة بربري أعجمي. وهذا الوضع يتعارض مع سياسة الدولة العربيّة المركزية التي سعت إلى تحطيم هذه النواة السياسيّة التي تمنح للعناصر المحليّة إمكانية التسيير في ظل الإسلام فقد اشتهر عن الدولة الأموية أنها دولة عربيّة أعرابية لم تسمح لغير العرب بالبروز والمشاركة في التسيير الإداري للمناطق التي كانت خاضعة لدمشق». أنظر:

المنصوري (محمد الطاهر): «فتوح إفريقية: من الإستقلال عن التّولة البيزنطية إلى الإندماج في المجال العربي الإسلامي»، جماعي: الثقافة والآخر، الدار العربيّة للكتاب، تونس، 2006، ص. 257.

<sup>104</sup> - قبل خروج عُقبه من القيروان، خلف وراءه حامية تعد خمسة آلاف مقاتل «مع الزراري والأموال». الذين لم يدمجهم في جيشه الذي توجه به إلى أقصى الغرب، ربما لأن نسبة كبيرة منهم بربر برقة. أنظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سبق ذكره، ج. IV، ص. 105.

<sup>105</sup> - فهو «تصرف كقائد عسكري يسعى إلى كسب جميع الأطراف». أنظر: المنصوري، «فتوح»، مرجع سبق ذكره، ص. 257.

<sup>106</sup> - «... وأقام ضعفاء أصحابهما ومن كان خرج معهما من موالى إفريقية باطرابلس». أنظر: ابن عبد الحكم، الفتوح، مصدر سبق ذكره، ص. 74 (النص العربي)؛ ابن الأبار، الحلة، مصدر سبق ذكره، ج. II، ص. 330.

<sup>107</sup> - ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ص. 55.

<sup>108</sup> - المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ص. 44.

وقيل «أصحاب الأنفال (الأثقال<sup>109</sup>) والدّراري من المُسلمين»<sup>110</sup>، وربما المقصود بالأثقال هنا النساء الحوامل خاصة منهن البربريات. وذلك قد يكون دليل على التّصاهر واختلاط الأنساب، بين البربر وأفراد الجيش العربي الذين أسّسوا مساكن ومساجد وأحياء داخل القيروان وخارجها، ومن المُرجّح أنهم اعتبروا القيروان موطنهم لذلك فضلوا البقاء. وبالتالي نتيجة بقاء مجموعة من العرب المُسلمين بالقيروان، إضافة إلى تزايد أعداد البربر المُسلمين، أصبحت القيروان تحت حكم كسيلة إمارة بربرية، ولم تعد مجرد معسكر للجيش.

وقد تباينت الروايات حول مسألة ارتداد كسيلة، أو محافظتها على الإسلام. فحتى لو ثبت إسلامه، إلا أنه لم يكن ليُتقن اللغة العربيّة أو استيعاب تعاليم الإسلام، أو حذق لغة القرآن في سنوات قليلة، ومع ذلك نجح في تأسيس دولته المحليّة المسلمة وحافظ على السّلم والأمان لمدة خمس سنوات، وهنا نتساءل إلى أي حد كان كسيلة مرتاحا في مكان لم يُشيده؟ فهي مدينة بُنيت حسب ما هو متعارف عليه في تخطيط المدن العربيّة الإسلاميّة<sup>111</sup> التي يتمّ تهيئتها حسب ما يتناسب مع إقامة حاكم مسلم، هل يعكس ذلك حبه لتملك ما كان عند العرب؟ وهل سعت النّصوص العربيّة إلى توضيح صورة عُقبة بغاية التقليل من ذلك الحدث؟ وهل كان قرار استقرار كسيلة بالقيروان قرارا قد خطّط له مسبقا؟

استقر كسيلة بالقيروان، ونصّب نفسه ملكا بربريا مسلما على سائر افريقية والمغرب<sup>112</sup>، ويجب أن نُدرِك هنا أنّه ليس المقصود بالملك

<sup>109</sup> - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 160.

<sup>110</sup> - ابن الأثير، الكامل، مصدر سبق ذكره، مج. IV، ص. 108.

<sup>111</sup> - «وأمر ببناء المدينة فبنيت وبني المسجد الجامع وبني الناس مساجدهم ومساكنهم وكان دورها ثلاثة آلاف باع وستمانّة باع وتم أمرها سنة خمس وخمسين وسكنها الناس وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتذهب ودخل كثير من البربر في الإسلام واتسعت خطة المسلمين، وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمانوا على المقام فثبت الإسلام فيها» أنظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سبق ذكره، مج. III، ص. 466.

<sup>112</sup> - ابن عذاري، البيان، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 31.

مُلْكًا فعليًا، بل هي صورة عن سيادة كسيلة على القبائل البربرية، فمن تضخيم صورة العدو تنشأ ضخامة حجم المُنتصر. فربما اقتصر نُفوذ كسيلة على منطقة هامّة من القيروان إلى حدود جبال الأوراس. ونجاحه في إرساء دولة مستقلة بالقيروان يدل على صفات إيجابية يتحلّى بها: فهو قائد قادر على قيادة قبائل متعددة، كما يتحلّى بالطموح والإرادة الجادّة في تغيير وضعية البربر بإفريقية، وإثبات وجودهم والتموضع في نفس مرتبة الوافد العربي { لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى } . وقد حاولت النصوص التأكيد على أنّ كسيلة استقرّ بالقيروان فقط انتقاما لكرامته من إهانة عُقبة له، وذلك بغاية التقليل من وقع الحدث، وإخفاء ربما حقيقة الواقع وهي أنّ كسيلة أسّس دولة ليس لأنه رفض الدين الإسلامي، بل لأنه رفض العنصر الوافد الذي تحدى كامل البربر باكتساح مناطق استقرارهم وإذلالهم. فكانت غايته صدّ العرب على اكتساح مجال البربر مرّة أخرى، لذلك نحن نعتقد أنّ استقرار كسيلة بالقيروان كان الهدف من وراءه إخراج العرب نهائيًا من المنطقة إلى حدود اطرابلس، ولم يكن ذلك مُمكنًا إذا تقهقر نحو الزاب وترك القيروان بعد أن عمّرت، وجهة لعودة العرب. ف ماهي العوامل التي ساعدت كسيلة على تأسيس دولة محلية مسلمة في القيروان؟ وماهي دوافعه؟ - عاين كسيلة عن كُتب كيفية ومراحل وأهداف تأسيس مراكز للسلطة العربيّة من خلال إنشاء مدينة، وذلك بفضل استفادته من تنقلاته من مكان إلى آخر مع أبي المهاجر. فقد كان شاهدا ربّما على طبيعة التقسيم السياسي والعسكري والبشري لمدينة ميلة التي أرساها أبو المهاجر دينار والتي استقر بها مدّة سنتين.

- القيروان مدينة مبنية، ومهيّأة، وذات موقع استراتيجي مُميّز<sup>113</sup>، كان قد جَهّزها عُقبة بمؤسسة دينية (المسجد الجامع)، وبمؤسسة سياسية (دار الإمارة)، وذلك ما كشف عن نيّة العرب للبقاء الدائم في المنطقة، فربما كانت غايته غلق باب العودة أمامهم. وهو بذلك أراد حماية القبائل

<sup>113</sup> - موقع بناء مدينة القيروان هو مكان أحسن عُقبة انتقاءه، فهو موقع منبسط، بعيد عن البحر، ويسمح بملاحظة العدو من بعيد وإيجاد الوقت لإعداد العدة للقائه.

البربرية الحضرية التي كانت مناطق استقرارها مهددة. وهو ما عكس وعيه بالأهداف الحقيقية لوجود العرب بالمنطقة، وربما حافظ على إسلامه نتيجة وعيه بمفهوم الجهاد، حتى يُغلق أمام العرب أي تبرير شرعي للدخول من جديد إلى المنطقة، وبذلك يكون قد حاربهم بنفس أسلوبهم وهو الدين.

- السياسة العنيفة التي اعتمدها عُقبة ضد البربر التي ساهمت بأسلوب غير مباشر في استقلال البربر.  
ولكن ما هو التبرير الذي سيستعمله العرب للدخول مُجدداً إلى المنطقة والانتقام من كسيلة؟

مع هدوء الأزمات بالمشرق خاصة ثورة ابن الزبير. رجع العرب إلى المنطقة وحثتهم الشرعية لتبرير تدخُلهم الجديد هو ارتداد البربر، وهذا ما أكدته رواية الناصري بقوله أن الردة فشت في البرانس وزناته<sup>114</sup>. فقد عاد زهير بن قيس البلوي إلى افريقية، و انسحب كسيلة منها إلى ممس على بعد 50 كلم من القيروان<sup>115</sup>، تحسباً من انقضاء من بها عليه<sup>116</sup> ربما لأن أغلبهم من البربر المسلمين، وهنا نتساءل عن أسباب اختيار البربر للأماكن السهلة لوقوع المواجهات بينهم وبين العرب: هل أن ذلك يدخل في إطار إجراءات وقائية؟ ربما لأن البربر عندما يُحاربون يبتعدون عن أماكن استقرار أهاليهم فلا يُعرضونهم للخطر، وهذا ما قام به كسيلة فقد خرج من القيروان رغبة منه في حماية الخليط البشري البربري - العربي. وانتهت المواجهة بمقتل كسيلة مع عدد كبير من أشرف قومه<sup>117</sup>، وهي صورة فيها إبراز واضح لقوة انتصار العرب من خلال إبراز قيمة العدو. ولكن الواقع أن

114- الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج. I، دت، دم، ص. 39.

115 - الطريقة التي يقاتل بها البربر كانت في السهول القريبة من الجبال، لأنه وقت الهزيمة سيكون من السهل اللوذ بالجبال، وهي طريقة تتشابه مع أسلوب قديم عند البربر ذكره بروكوب. أنظر:

Procopé, la guerre contre les vandales, livre II, op.cit., p. 15

116- المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 47؛ ابن عداري، البيان، مصدر سبق ذكره،

ج. I، ص. 32.

117- ابن عداري، البيان، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 32.

الانتصار لم يكن بحجم الصورة، فقد تراجع زهير إلى برقة مُبرِّراً انسحابه بأنه جاء للجهاد وليس للذة الحياة<sup>118</sup>، ولكنه ربّما انسحب خوفاً من انتقام البربر لمقتل زعيمهم كسيلة<sup>119</sup>، خاصة وأن بحوزته غنائم يجب أن يُسرَّع بها إلى المشرق مع تواصل الصِّراع بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير.

ولكن لتبرير هزيمة عُقبة أمام كسيلة قدمت النصوص عدّة معطيات التي تمثلت في:

- ضخامة أعداد البربر مقارنة بأعداد الجيوش المُصاحبة لعُقبة عشرة أضعافهم. وحرصت على تقديم كسيلة بصورة الغادر الذي جمع حوله خمسون ألف مُقاتل. فهو لم يُقاتل الجيوش العربيّة وجها لوجه بل انتظر تفرّقها وعودتها إلى القيروان للانقضاض على عُقبة، وهذا ما ربط البربر فيما بعد بالخبث «قسم الله الخبث على سبعين جزءا فجعل في البربر تسعة وستين جزءا والثقلين جزءا واحدا»<sup>120</sup>.
- تكثّل البربر وتوحّد عناصر وزعامات من قبائل مُتعدّدة تحت زعامة كسيلة وليس لمُدح البربر بقدر ما هو تبرير لهزيمة العرب.
- علاقة أبو المهاجر وكسيلة فقيل: «إن كسيلة إنما أتى ناصرا لأبي المهاجر لأنه كان صديقه. فقتل أبو المهاجر في التحام القتال ولم يعلم به»<sup>121</sup>.

إذا كيف استغلّت النصوص العربيّة مقتل عُقبة لتعظيم صورة كسيلة، ألم تكن صورة كسيلة ثابتة في النصوص العربيّة؟

<sup>118</sup> - المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 37؛ ابن عذاري، البيان، مصدر سبق ذكره،

ج. I، ص. 32-33؛

<sup>119</sup> - «فترك (زهير) بالقيروان عسكريا وهم آمنون لخلو البلاد من عدو أو ذي شوكة، ورحل في جمع كثير إلى مصر». أنظر: ابن الأثير، الكامل، مصدر سبق ذكره، مج. IV، ص. 109.

<sup>120</sup> - المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج. II، ص. 354.

<sup>121</sup> - نفس المصدر، ص. 40.



بتمحيصنا للتّصوّص العربيّة نلاحظ أن صُورة كسيلة لم تكن ثابتة فقد تطوّرت حسب موقع العرب: قوّة/ضعف، غالب/مغلوب:

- عندما كان كلا الطرفين (عرب/بربر) في موقع قوة، ونقصد هنا في فترة التحالف مع أبي المهاجر، وقبل استعداد عُقبة لمواجهته كانت له صُورة الملك<sup>122</sup>، والزعيم، رئيس البلاد<sup>123</sup>، «خيار قومه»<sup>124</sup>، «من أكابر البربر وأبعدهم صوتاً»<sup>125</sup>، وهذه السّمات الإيجابية الغاية من وراءها إيصال صُورة قد تكون لإبراز رمزية عُقبة من خلال كسيلة.
- عندما تمكّن العرب من التغلّب عليه وأسرّه، تمّ إذلاله ونُظر إليه بعنصرية واضحة فهو "بربري"<sup>126</sup>، مؤكدين على أن وجوده لم يكن يشكل خطراً على العرب، ولم يكن من الضروري قتله للتقدم في البلاد فكان يكفي من منظور عُقبة تقييده وإهانته.
- وعندما انقلبت الوضعية وعاد كسيلة إلى موقع القوة/المنتصر بعد قتله لعُقبة، أصبحت صورته قائمة فهو "العين"<sup>127</sup>، "كلب"<sup>128</sup>.

## خاتمة:

إذا ما نستخلصه في النهاية هو أن تجاوز التّصوّص العربيّة لحقيقة استقرار كسيلة بالقيروان، يعكس ضمناً رفض النخبة العربيّة واقع أن تصبح إمارة إفريقية في يد سلطة محلية مستقلة عن نفوذ الخلافة الأموية بالمشرق، وليست بيد الأرستقراطية العربيّة، خاصة مع معرفتنا

<sup>122</sup> - ابن عذاري، البيان، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 29.

<sup>123</sup> - ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 53.

<sup>124</sup> - المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 41؛ ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق ذكره،

ج. I، ص. 53.

<sup>125</sup> - ابن الأثير، الكامل، مصدر سبق ذكره، مج. IV، ص. 107.

<sup>126</sup> - المالكي، الرياض، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 40-41؛ ابن ناجي، المعالم، مصدر سبق

ذكره، ج. I، ص. 53.

<sup>127</sup> - ابن عذاري، البيان، مصدر سبق ذكره، ج. I، ص. 31؛ ابن تغري بردي، النجوم، مصدر سبق

ذكره، ج. 1، ص. 160.

<sup>128</sup> - الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، مج. III، تحقيق بشار عواد معروف، دار

الغرب الإسلامي، ط. 1، 2003، ص. 585.

بأن الدولة الأموية دولة عربية لم تُقلد منصب الولاية لغير العرب لمنطقة هي تحت نفوذها<sup>129</sup>. وإن اعترفت النصوص ضمنياً بقوة كسيلة فذلك لتبرير قوة الانتصار، وهي في الواقع صورة أنية/ ظرفية، فما إن قُتل عقبة مثلاً حتى أصبحت صورة كسيلة قاتمة. كما لا يفوتنا هنا أن نؤكد على أن النصوص العربية هي نصوص ما بعدية أعادت تركيب الأحداث وانتقاء الأخبار حسب ما يتوافق مع خصوصيات الذهنية العربية في طريقة تعاملها مع الآخر المغلوب.

---

<sup>129</sup> - أنظر هامش رقم (44).



## الخوارج و علاقتهم بالأمازيغ خلال القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي

أو عثمانى ستار  
دكتور في التاريخ

يرجع ظهور الخوارج إلى عهد الخليفة علي بن أبي طالب. بعد مطالبة والي الشام معاوية بن أبي سفيان بمحاسبة قتلة عثمان بن عفان و جعل هذا الأمر كشرط لمبايعة علي بالخلافة، اتضح جليا أن الحرب هي التي سوف تفصل بين الطرفين. في عام 38 هـ / 658 م، التقى الجيشان (علي و معاوية) في واقعة صفين و استمر القتال عدة شهور تخللتها محاولات صلح كان وراءها بعض المصلحين. وفي الأخير، ولما رأى معاوية أن الأمور تسير في غير صالحه، ارتأى إلى حيلة تمثلت في مطالبة جنوده وضع القرآن فوق رماحهم للمطالبة بالإحتكام لكتاب الله لحل المشكلة. رضخ علي لهذا الأمر و قبل اللجوء إلى التحكيم. فمثل عن علي، أبو موسى الأشعري و مثل عن معاوية، عمرو بن العاص.<sup>130</sup> عند الرجوع إلى الكوفة و قبل صدور التحكيم، انفصل آلاف من جنود علي عن قائدهم بسبب قبوله اللجوء إلى التحكيم و اعتبروا ذلك بمثابة الخطيئة الكبرى التي يستوجب التوبة منها، لذلك لقبوا منذ ذلك الوقت بالخوارج، و عظم أمرهم خاصة بعد صدور التحكيم الذي كان في غير صالح علي، و التحق بهم أنصار جدد مما دفع الخليفة علي إلى محاربتهم بعد فشل كل المحاولات التي قام بها لإرجاعهم إلى طاعته. و في عام 38 هـ / 658 م انتصر الخليفة علي بن أبي طالب على الخوارج في

<sup>130</sup>AMAR Dhina, Grands tournants de l'histoire de l'Islam, Alger, SNED, 1978, p 48, 49, 50

معركة النهروان في العراق و قتل منهم الكثير، و على رأسهم قائدهم عبد الله بن وهب.<sup>131</sup>

رغم الهزيمة، استمر نشاط الخوارج في المشرق العربي و أصبحت لهم آراء فقهية تخالف غالبية السنة. كما انقسموا إلى عدة فرق كالأزارقة و الصفرية و الإباضية. تجدر الإشارة هنا إلى رفض الكتاب الإباضيين لفكرة انتماء مذهبهم للخوارج و لكن أمهات الكتب، وأشير هنا إلى ما كتبه الشهرستاني، الطبري، ابن حزم، ابن خلدون، البغدادي و الطبري، تشير أن في الأصل الإباضية كانت فرقة خارجية، و يرى البعض أن المذهب الذي ينتسب إلى عبد الله بن أباض انفصل مع مرور الوقت عن الخوارج. قام أتباع النحلة الخارجية بعدة ثورات ضد الحكم الأموي في المشرق العربي فشلت كلها مما دفعهم للبحث عن مكان آمن بعيد عن اضطهاد الأمويين لذلك عملوا على نقل فكرهم إلى بلاد المغرب.<sup>132</sup>

## 1- إعتناق الأمازيغ للمذهب الخارجي

إن المتأمل لتاريخ المغرب في العصر الوسيط يلاحظ أن غالبية المذاهب التي نشأت في المشرق، نجحت في تحقيق مبتغاها في بلاد المغرب في الوقت الذي فشلت في ذلك في المنطقة التي ترعرعت فيها. ويمكن أن نذكر هنا المذهب الشيعي بكل فروعه و كذا الفرقة الخارجية بكل الانقسامات التي عرفتها من المعروف أنه من السهل نقل ايديولوجية أو أفكار معينة من بلاد إلى آخر و يتطلب فقط عدد معين من الأشخاص المشهورين بالدعاية و القادرين على إقناع الناس بالفكرة التي يدعون إليها. ففي أواخر العصر الأموي، بدأ توافد دعاة الخوارج إلى المغرب الإسلامي و أخذوا ينشرون أفكارهم بين الأمازيغ الذين كانوا يعيشون أوضاعا صعبة في ظل طغيان الحكام الأمويين، الشيء الذي سهل مهمة انتشار الفكر

<sup>131</sup> محمد بن عميرة، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 50، 52، 51.

<sup>132</sup> نفس المرجع السابق، ص 50 حتى 65.

الخارجي بين صفوفهم. يذكر جودة عبد الكريم يوسف أن دخول الخوارج كان على "شكل مهاجرين للإقامة و الاستيطان، و تجار و جنود في الجيوش الإسلامية، و دعاة و منظمين مثل سلمة بن سعد، الذي نجح في استمالة عدد من الرجال، و أرسل بهم إلى زعيم المذهب أبي عبيدة لينلقوا العلم منه و يعودوا إلى المغرب، و يعرفون بحملة العلم".<sup>133</sup> و حسب أبو زكريا، فإنه أول من دعى للصفرية في بلاد المغرب هو عكرمة مولى ابن العباس، و يضيف أنه قدم مع أول دعاة الإباضية سلمة بن سعد.<sup>134</sup>

اختلف المؤرخون حول سبب الإنتشار المذهل و السريع للفكر الخارجي في صفوف الأمازيغ. حسب ابن خلدون، استخدم الأمازيغ هذا المذهب كوسيلة للثورة على الحكم الأموي و نفهم من كلامه أن البربر لم يكونوا مقتنعين بهذا الفكر الجديد، وإنما ساندوه لأسباب ظرفية.<sup>135</sup> و يقترب المؤرخ جوليان مما أشار إليه ابن خلدون عندما ذكر أنه "لا بد لكل انتفاضة من أصول مذهبية" و يضيف أن البربر "صبغوا معارضتهم بالصبغة الإسلامية فتمكنوا بذلك من عرض مطالبهم الإجتماعية في صورة مثل أعلى ديني".<sup>136</sup> فالأمازيغ كانوا يريدون القيام بالثورة و كانت تنقصهم الإيديولوجية، فوجدوها في المذهب الخارجي. من جهته، يعتقد غابريال كامبس من أن "الاتجاه المتشدد و الديمقراطي للفكر الخارجي" يتناسب مع العقلية الأمازيغية في تلك الفترة.<sup>137</sup> الحديث عن معرفة طبيعة العقلية الأمازيغية بعد مرور أربعة عشر قرن من تلك الحقبة الزمنية هو من الأمور التي يصعب الخوض فيها، ولكن ما قاله المفكر الفرنسي ينطلق من بعض الحقائق مفادها أن دعوة الخوارج إلى

<sup>133</sup> جودة عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 25.

<sup>134</sup> نقله محمد بن عميرة، نفس المرجع السابق، ص 65.

<sup>135</sup> IBN KHALDOUN, Histoire des Berbères, tome 1, traduction De Slane, Alger, Berti éditions, 2001, p 149.

<sup>136</sup> جوليان شارل أندري، تاريخ افريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي و البشير بن سلامة، تونس، الدار التونسية للنشر، 1985، ص 34

<sup>137</sup> CAMPS Gabriel, Les Berbères, mémoires et identité, Alger, éditions barzakh, 2007, p 138

## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

المساواة بين الشعوب وفتح باب خلافة المسلمين على العناصر غير العربية هو أمر، من البديهي أن يلقي ترحابا لدى الأمازيغ الذين يعيشون في ظل حكم يطغى عليه العنصر العربي. في اعتقادنا أن ما سهل اعتناق الأمازيغ للفكر الخارجي هو أنهم كانوا حديثي العهد بالإسلام. فلم يمر على إسلام عدد كبير منهم إلا سنين لا تكفي للتعمق في مفاهيم الدين الجديد. فالإسلام لم يدخل القلوب عند البعض بعد، لأن مثل هذا الأمر يتطلب بعض الوقت، و من الطبيعي إذن أن يجد المذهب الخارجي الصدى الإيجابي لدى البربر بعد سنين من دخول الفكر الخارجي إلى المغرب الإسلامي، اندلعت ثورة عارمة ضد الحكام الأمويين عام 122 هـ / 739 م بقيادة ميسرة المدغري أو المطغري المعروف بالسقاء لأنه كان يبيع الماء في القيروان، و تبعتها عدة ثورات قادها أمازيغ متأثرين بالأفكار الخارجية، استمرت بصورة خاصة طوال ما بقي من القرن الثاني للهجرة (الثامن ميلادي).

### 2 - ثورة ميسرة و تطورها

للمذهب الخارجي دور غير مباشر في قيام انتفاضة ميسرة و الثورات التي تلتها وهذا دون نسيان سياسة الحكام الأمويين تجاه الأمازيغ التي تعتبر بمثابة السبب المباشر فمنذ انتهاء فترة الفتوحات الإسلامية للمغرب و الأندلس، خضع الإقليم لسلطة والي القيروان، ممثل الخلافة الأموية. تعاقب العديد من الولاة منذ حكم موسى ابن نصير و توقف التاريخ خاصة عند حكم يزيد بن أبي مسلم سنة 101 هـ / 720 م و عبيد الله بن الحبحاب في فترة (114 هـ - 123 هـ) الموافقة لـ (734 م - 741 م) .

ففي عام 720 م، ثار الجنود الأمازيغ العاملين في جيش والي القيروان يزيد بن أبي مسلم فقتلوا هذا الأخير. هذا القائد الذي ساعد في وقت سابق الحجاج بن يوسف على بسط سياسته في العراق، أراد تطبيق نفس السياسة على البربر. على سبيل الذكر، نوى وشم الجنود الأمازيغ، وقد يكون ذلك من أجل التعرف عليهم بسهولة. جاء الوالي الجديد، بشير بن

صفوان، لخلافة يزيد بن أبي مسلم و أجهضت الثورة في مهدها. حتى الأمازيغ لم تكن لهم في تلك الفترة الرغبة في الخروج عن الطاعة و عبر البعض منهم في رسالة بعثوها للخليفة الأموي بأن تصرفهم كان بسبب سياسة ممثله في إفريقية الذي أراد اهانتهم الوالي الذي تسبب بسياسته في إطلاق نيران الثورة هو عبيد الله بن الحبحاب. كخطوة منه لإصلاح النظام الجبائي، قرر هذا الأخير فرض الجزية على الأمازيغ المسلمين، تلك الضريبة التي تفرض على السكان الخاضعين لسلطة الحكم الإسلامي و المؤمنين بديانات أخرى غير الإسلام. خطوة أخرى مستفزة هي إطلاق الأيدي لممثله في المغرب الأقصى حبيب بن أبي عبيدة وترك له حرية التصرف تجاه البربر حسب أهوائه. ففي إحدى غزوات هذا القائد على السوس الأقصى، قتل الكثير من الأمازيغ و قام بسبي عدد منهم و أغلب الظن أن نسبة منهم كانت تبعث كهدايا للمشرق. و إذا صدقنا ابن كثير فقد انتقل وفد أمازيغي بقيادة ميسرة إلى المشرق لتقديم شكوى للخليفة هشام بن عبد الملك. رفض هذا الأمير استقبال تلك البعثة، الشيء الذي جعل ميسرة و أصحابه يكتفون بتوجيه رسالة شفوية للخليفة عن طريق أحد الوسطاء و جاء في تلك الرسالة مايلي : "إن أميرنا يغزوا بنا و بجنودنا، فإذا غنمنا نقلهم و يقول : هذا أخلص لجهادكم، و إذا حاصرنا مدينة قدمنا و أخرجهم و يقول : هذا ازدياد في الأجر و مثلهم كفى إخوانه ثم أنهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرون بطونها عن سخا لها يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فيقتلون ألف شاة في جلد، فاحتملنا ذلك ثم أنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا... " <sup>138</sup> يتضح من هذا الكلام أن الحاكم الأموي ارتكب خروقا عديدة لها علاقة خاصة بتقسيم الغنائم، الدفع بالبربر إلى الخطر دون غيرهم، قتل أغنام الأهالي لسبب غير مقنع و أخيرا اختطاف النساء الجميلات. لم يستجيب الخليفة لمطالب بعثة ميسرة و استمر الوضع من سوء إلى سوء حتى قيام ثورة الخوارج

<sup>138</sup> نقله محمد بن عميرة، نفس المرجع السابق، ص 63.



الأولى (في المغرب) بسبب تلك الأوضاع التي كان يعيشها الأمازيغ تحت السيطرة الأموية و بالأخص الأمثلة التي ذكرناها استغل ميسرة الصفري انشغال والي القيروان بأمر الحملة التي جهزها ضد صقلية من أجل إشعال فتيل الثورة في المغرب الأقصى، فانتقل مع أنصاره إلى طنجة و قتل أميرها عمر بن عبد الله عام 122 هـ /739 م، ثم حط الرحال في السوس ليكرر نفس الأمر مع العامل الأموي اسماعيل بن عبيد الله بن الحباب، وعاد إلى طنجة ليبيع بالخلافة.<sup>139</sup> شارك في هذه الثورة جل القبائل الأمازيغية الكبيرة كزناتة و مكناسة و برغواطة في حين رأى غوتي أن الثورة هي في الأساس زناتية.<sup>140</sup> قتل ميسرة من طرف أتباعه و عوض حسب ابن خلدون بخالد بن حميد الزناتي. وحقق الخوارج تحت إمرة هذا القائد الانتصار على الأمويين في واقعتين مشهورتين. تعرف الأولى بمعركة الأشراف التي وقعت عام 123 هـ / 741 م في شمال المغرب الأقصى حسب أغلب المؤرخين و أسفرت عن مقتل قائد الجيش الأموي خالد بن حبيب و عدد كبير من أشراف قريش. أما الواقعة الثانية فجرت في بقدورة في نفس السنة، و أسفرت عن مقتل الوالي الأموي الذي عوض عبيد الله بن الحباب ألا و هو كلثوم بن عياض و عدد غير مستهان من أتباعه. تدفق الخوارج بأعداد هائلة نحو افريقية (تونس) و أصبح الهدف المسطر هو الاستيلاء على عاصمة الإقليم (القيروان). وعند الوصول الى منطقة الزاب، انقسم جيش الخوارج إلى قسمين : قسم ترأسه عكاشة تقدم حتى موضع يعرف بالقرن، غير بعيد عن القيروان، و استقر هناك. جيش آخر قاده عبد الواحد اتجه قاصدا القيروان من طريق آخر. في الجهة المقابلة، أحس الخليفة هشام بن عبد الملك بالخطر، فعين والي مصر حنظلة بن صفوان على رأس جيش قوامه ثلاثون ألف جندي و كلفه بالدفاع عن القيروان. تمكن هذا القائد من تحقيق مبتغياه عندما هاجم جيشا الخوارج قبل اتحادهما. ففي صيف 125 هـ /743 م انتصر على عكاشة في واقعة القرن

<sup>139</sup> ابن الكثير، الكامل في التاريخ، الجزء الثالث، ذكر ولاية عبيد الله بن الحباب.

<sup>140</sup> GAUTIER (Félix Emilie), Le passé de l'Afrique du nord, Paris, Petite bibliothèque Payot, 1952, p 271

ثم هزم جيش عبد الواحد هزيمة نكراء في موقعة الأصنام.<sup>141</sup> واستطاع الأمويون إنقاذ القيروان من قبضة الخوارج و جعلوا هذا الحدث عظيما انطلاقا من اعتبارهم الخوارج كفرقة ضالة بحيث في حالة استيلاء هؤلاء على عاصمة المغرب، يصبح إسلام الأمازيغ في خطر.<sup>142</sup> افترق الخوارج في باقي مناطق المغرب الإسلامي و احتفظ الأمويون بافريقيّة. يبقى أن نتساءل عن سر استيلاء الخوارج على المغرب الأقصى و المغرب الأوسط في ظرف وجيز ( 739 م - 742 م). هذا إن دل على شيء فإنما يدل على الانتشار المذهل للأفكار الخارجية في صفوف الأمازيغ. وتحدث المصادر التاريخية عن معارك شارك فيها البربر بعشرات الآلاف و نخص بالذكر على سبيل المثال معركة الأصنام التي قدر فيها النويري جيش الخوارج بثلاث مائة ألف مقاتل و عدد قتلهم بمائة و ثمانين ألف شخص.<sup>143</sup> بغض النظر عن المبالغة في الأرقام، يمكن الإستخلاص من هذا القول مدى الدعم الهائل الذي لقيه دعاة الخوارج من البربر.

### 3 - ظهور الممالك الأمازيغية الخارجية

واصل الخوارج ثوراتهم ضد الأمويين ثم العباسيين طوال القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) و تمكنوا حتى الإستيلاء على القيروان و لو لفترة وجيزة ( 757 م - 761 م). يطول الحديث هنا عن الدمار الذي سببها في كل شمال إفريقيا و من كل النواحي، بالإضافة إلى الآلاف من القتلى، من الأمازيغ و العرب، الذين سقطوا ضحايا الصراع حول السلطة و لمزايا أخرى. نشير فقط باختصار إلى أهم نتيجة ترتبت

---

13- ما يبين أيضا الصدى الذي تركته واقعتي القرن و الأصنام هو مقاله العالم المصري الشهير، الليث بن سعد، بقوله: " بعد معركة بدر،  
<sup>141</sup> الواقعتين التي تمنيت حضورهما هما القرن و الأصنام". أنظر النويري، المصدر السابق، ص 382

<sup>142</sup> IBN KHALDOUN, op cit, p 149 à

<sup>143</sup> AN-NUWAYRI, Histoire de l'Afrique septentrionale par les Musulmans et histoire de ce pays sous les émirs arabes, voir Ibn Khaldoun, Histoire des Berbères, traduction de slane, tome 1, appendices, p382

عن ثورات الخوارج منذ انتفاضة ميسرة، ألا وهي ظهور المماليك الأمازيغية الخارجية و هذا لأول مرة في التاريخ في المغرب الأقصى و على ضفاف المحيط الاطلسي، في منطقة تامسنا، ظهرت إمارة برغواطة حوالي ( 126 هـ / 744 م) على يد طريف أبو صالح ، الذي ساعد ميسرة في ثورته ثم انفصل عنه ليؤسس مملكته بمساندة قبائل مصمودة المغربية. عوض طريف بابنه صالح الذي انفصل عن المذهب الخارجي و عن الإسلام بما أنه ادعى "النبوة" و نادى بدين جديد وبأنه المهدي المنتظر. بالنسبة للأمازيغ، تعتبر هذه الخطوة من المحاولات القلائل، منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الوسيط، التي تنفصل فيها مجموعة قبلية عن الإسلام لتدعي بدين جديد، مع وضع أسس جديدة للمعاملات بين الناس.<sup>144</sup> و الأمر الأكثر غرابة أن مملكة برغواطة عاشت أكثر من أربعة قرون و تصدت لكل الهجمات التي قادها ضدها الأدارسة، الصنهاجيون، بنو يفران، المرابطون، حتى سقطوا أخيرا على أيدي الموحدين في نصف القرن الثاني عشر للميلاد.<sup>145</sup>

تنتمي قبيلة بنو يفران الى زناتة ، أشهر و أكبر القبائل الأمازيغية في العصر الوسيط. ففي عام 148هـ / 765 م، بايعت زعيمها أبا قررة على رأس الإمارة التي كان مركزها تلمسان و نواحيها. لم يذكر التاريخ إلا القليل عن أبي قررة و مملكته. نعرف أنه شارك في جيش عبد الواحد الصفري في طريقه للاستيلاء على القيروان عام 125 هـ / 743 م، ثم اختفى عن الأنظار حتى بويع كخليفة كما ذكرنا، ليختفي مرة أخرى حتى يذكرنا التاريخ أنه شارك في حصار الوالي العباسي عمر ابن حفص في طبنة عام 154 هـ / 171 م. فقد ذكرت المصادر التاريخية أن أبا قررة وصل إلى طبنة لمساندة إخوانه من الخوارج على رأس جيش قوامه أربعين ألف من قومه.<sup>146</sup> عاد أبو قررة إلى مملكته بعد

<sup>146</sup> تحدث عبد الله العروي عن محاولة أخرى، أقل أهمية من برغواطة، قام به شخص من غمارة، جنوب تيطوان، اسمه تميم. أنظر كتابه المذكور سابقا، ص 104

<sup>145</sup>IBN KHALDOUN, op cit, p 295 à 301

<sup>18</sup>IBN KHALDOUN, op cit, tome 2, p 335.

فشل الحصار، واستمر وجود الإمارة حتى قضى عليها محمد ابن خزر المغراوي عام 170 هـ / 786 م حسب عبد الله العروي.<sup>147</sup> تجمع أتباع قبيلة مكناسة الصفرية في جنوب شرق المغرب الأقصى، فبايعوا عيسى بن يزيد الأسود، ثم شرعوا في بناء مدينة سجلماسة عام 140 هـ / 757 م، التي جعلوها عاصمة الإمارة الجديدة، مملكة الواحات الكبرى. يعتقد أن عيسى بن يزيد هو من العرب، و معروف عند البربر، منذ الفتح الإسلامي مبايعة أشخاص غرباء عن القبيلة في ظل توفر بض الشروط كالعلم أو الانتماء إلى الأسر الشريفة. كذلك كان الأمر بالنسبة لإدريس بن عبد الله لما قدمه زعيم قبيلة أروبة في المغرب الأقصى، و عبد الرحمان بن رستم عند قبيلة لماية في المغرب الأوسط، و أبو عبد الله الشيعي عند كتامة. دام حكم عيسى خمسة عشر سنة و ذكر ابن خلدون أن سكان قبيلة مكناسة غضبت عليه، فشدوه ووضعوه في الجبل حتى هلك. انتقل الحكم بعد ذلك إلى أبي القاسم سمكو المكناسي و توفي عام 167 هـ / 783 م ليعوضه الياس ثم اليسع بن مدرار. يعتبر هذا الأخير أشهر ملوك سجلماسة على الإطلاق. ففي عهده أعيد بناء سجلماسة، و شيد فيها المصانع و القصور، كما اتبع سياسة توسعية، فغزى بلاد درعة و استولى على خيراتها. من جهة أخرى، أقام علاقات متينة خاصة من الناحية التجارية مع أخوانه في المذهب الخارجي بنو رستم، و أصبحت له معهم علاقة مصاهرة بزواج ابنه مدرار مع أروى ابنة عبد الرحمان ابن رستم. في عام 909 هـ، دخل أبو عبد الله الشيعي إلى سجلماسة، فدخلت الإمارة في مرحلة الانحطاط.<sup>148</sup>

اهتم المؤرخون كثيرا بالإمارة التي أسسها عبد الرحمان بن رستم. كان هذا الفارسي الأصل واليا على القيروان ( 758م – 761 م) باسم قائده أبي الخطاب، زعيم الإباضية في المغرب في تلك الفترة. بعد مقتل هذا الأخير على أيدي العباسيين، فر عبد الرحمان واستقر به المقام، عام 144 هـ/761 م عند قبيلة لماية الأمازيغية و ساعده على بناء تيهرت التي اتخذت عاصمة للإمارة الجديدة. بويع عبد الرحمان بن

<sup>147</sup>LAROU Abdellah, Histoire du Maghreb, Maspero, p 108

<sup>148</sup> IBN KHALDOUN, op cit, P 181 à 184

رستم بالإمامة في حوالي 160 هـ / 776 م و امتد سلطانه على مساحة كبيرة من شمال الجزائر الحالي. اشتهرت تيهرت بنظام حكمها الخاص و بحكامها المشهورين بالعدل و المساواة و التسامح. في عام 296 هـ / 909 م و قبل وصول الجيش الفاطمي إلى تيهرت، فر الإباضيون و على رأسهم الامام أبو يوسف يعقوب و استقروا في ورجلان قبل أن ينتقلوا إلى وادي ميزاب، في أواخر القرن العاشر ميلادي، ليجعلوا تلك المنطقة مقرا نهائيا لإقامتهم.<sup>149</sup>

الملاحظ أن الإمارات الأربع كانت امارات مسلمة و أمازيغية في الاساس كونها تستمد قوتها من مساندة قبائل أمازيغية معروفة. أما كون مؤسس المملكة هو من أصل آخر لا يغير في الأمر شيء بما أن الإدارة و الجيش هما في حوزة أتباع القبيلة. استمرارها طوال أكثر من قرن (أقصد هنا برعواطة، و سجماتاسة و تيهرت) دليل على قوتها. فمن المعروف أن اللغة السائدة في العصور الوسطى هي "البقاء للأقوى" و هي القاعدة التي أدت إلى انهيار بعض الممالك في مهدها، قبل أن يحدثنا التاريخ عنها.

مع حلول القرن الثالث الهجري ( التاسع للميلاد) و في الوقت الذي اتضحت فيه الخريطة السياسية في المغرب الإسلامي في ظل الدويلات الثلاث الكبرى (الأغالبة في افريقية، الرستميون في المغرب الأوسط و الأدارسة في المغرب الأقصى)، قل دور الخوارج السياسي رغم استمرار وجودهم في شكل الإمارات التي ذكرناها سابقا. في العهد الفاطمي، عظم شأنهم أثناء ثورة أبي يزيد المعروف بصاحب الحمار (943 م – 947 م). لكن بموت هذا الأخير، لم يبقى للخوارج أي دور سياسي مهم في بلاد المغرب طوال القرون التي تلت العهد الفاطمي

محمد بن عميرة، نفس المرجع، ص 23 الى 72. <sup>149</sup>

## شمال إفريقيا والتحولات السياسية الكبرى في القرون الوسطى

محمد الصالح ونيسي  
باحث في التاريخ

على المؤرخ أن يجتنب الاستنتاجات النهائية، وان يكتفي بتسجيل القليل الذي نعرفه عن ماضي بلاد البربر، وذلك من غير أفكار قبلية، ومع الحرص على طرح المشاكل على الأقل، إذا تعذر حلها. شارل أندريه جوليان - تاريخ شمال إفريقيا

اتفق جل المؤرخين على أن دخول بدو بني هلال وسليم إلى الشمال الإفريقي سنة 1051 م كان أهم حدث في تاريخ هذه المنطقة، إذ مرت كل الاحتلالات السابقة لبلاد البربر مرور الكرام، ولم تترك أثارا واضحة على الصعيد اللغوي والاجتماعي خاصة، إذ استطاعت الساكنة البربرية الكثيرة العدد امتصاص كل الجاليات القرطاجية والرومانية والوندالية والبيزنطية وطبعتها بطابعها. وتمزغت كل هذه الجاليات تماما ثقافيا ولغويا وعرقيا. فعندما يتم طرد المعمرين الأجانب، فان بعضهم يركب البحر، ويندمج البعض وسط الساكنة البربرية.

ومن طبيعة الإنسان الأمازيغي أنه يقدر الحرية إلى ابعده الحدود، ويكره قيود السلطة ولو كانت من أبناء عمومته، ولذلك اتهمه البعض بالقصور السياسي مستدلين بعدم توصله إلى بناء دولة مركزية أمازيغية دائمة. ولذلك وصف تاريخ البربر بتاريخ المقاومة الدائمة. والمسألة التي حيرت العلماء، هي طول نفس البربري، و صبره وتحمله الذي يمتد لقرون وقرون، فقد تحمل حكم قرطاج لتسعة قرون وتحمل سيطرة الرومان

لستة قرون، وتحمل الوندال والروم لقرنين وتحمل السيطرة الفرنسية لقرن وربع.

والمفارقة هي أن العرب البدو الذين غزوا شمال أفريقيا منتصف القرن 11، لم يكونوا منظمين في إطار دولة أو إدارة مركزية مثل السابقين، وإنما هم عبارة عن قبائل بدوية لا يهتمها الحكم بقدر ما تهمها المراعي والأراضي الخصبة، بدليل أن أي شيخ قبيلة عربية لم يتوصل إلى الحكم ما عدا بعض الإمارات الصغيرة مثل إمارة قابس وبسكرة. فقد كانت القبائل البدوية العربية تتسابق للانضواء تحت حكم الزيريين والحماديين أو الموحديين أو الزيانيين أو المرينيين. وبالمقابل كانت كل هذه الدول تتسابق لتجنيد مرتزقة من هذه القبائل في صفوفها. فقد وقع هنا استغلال متبادل بين الطرفين: استغل ملوك البربر البدو العرب لتوطيد سلطانهم على شعوبهم من جهة ولضرب العرب بعضهم ببعض لإضعافهم من جهة أخرى.

فعندما يتجدد البدو في جيوش دول متحاربة، فمعنى ذلك أنهم يتقاتلون فيما بينهم.

ومن جهة أخرى استغل العرب ضعف هذه الدول جميعا للتسرب نحو أراضي التل الخصبة، مثل ما نراه حاليا في تونس وفي التل الغربي الجزائري وسهول الغرب و دو كالة والشاوية بالمغرب الأقصى، ونعود فنقول بان الطبيعة البدوية العربية المشابهة لطبيعة بدو زناته هي التي أوجبت شعور الكراهية من جديد لدى قبائل زناته ضد كل الأنظمة السياسية ولو كانت هذه الأنظمة من نفس طينتها.

إن التحولات السياسية الكبرى التي حدثت في شمال إفريقيا ابتداء من منتصف القرن الحادي عشر ميلادي والمتمثلة في غزو القبائل البدوية العربية لشمال أفريقيا، ظلت مجهولة من قبل الجمهور إن لم تكن من الطابوهات. كما ظل المؤرخون الجزائريون يتحاشون التطرق إليها في مداخلاتهم وكتاباتهم.

مع أن هذه التحولات تعتبر نقطة ارتكاز لكل دراسة جدية لتاريخ شمال إفريقيا المعاصر، ولا يمكن بدونها فهم و استيعاب التغيرات الأخرى التي حدثت بعد هذا التاريخ.

وإذا أردنا أن نعيد كتابة التاريخ الجزائري بموضوعية ونزاهة، علينا التركيز على هذا الحدث التاريخي الهام، وإبلاؤه العناية والاهتمام اللازمين بدون تشنج أو انحياز.

فغزو قبائل بني هلال سنة 1051 م لشمال أفريقيا لم ينتج عنه تغيير ديمغرافي ذو شأن في تركيبة الساكنة البربرية الأصلية، وإنما نتج عنه تغيير سياسي يتمثل في انقلاب الموازين القبلية القديمة التي كانت تتميز بتغلب الصنهاجيين على الزناتيين سياسيا، وكلنا نعلم الحروب الطاحنة التي دارت رحاها بين الكتلتين الأمازيغيين بانحياز صنهاجة وكتامة إلى الفاطميين وانحياز زناتة إلى الأمويين بالأندلس. وكذلك نتج عنه تغير لغوي أفضى إلى تعريب البربر وخاصة بربر زناتة، وانحصار اللغة البربرية في الجبال والصحاري القاصية .

وبعد استتباب الأمن والاستقرار نسبيا في شمال أفريقيا الذي فرضته دولتنا بني زيري بالقيروان وبني حماد بالقلعة، استقرار أدى إلى تثبيت زناتة في أراضي السهوب مؤقتا في إطار تقاسم الأراضي. ولكن نزعة التوسع ظلت كامنة في النفوس عند زناتة لغاية وصول بدو بني هلال و سليم. هذا الوصول أجج الصراع القديم الكامن و أحيا شهية التوغل والتوسع لدى زناتة مرة أخرى.

وقد عبر عن ذلك E. Felix Gautier في كتابه *Le passé de l'Afrique du nord, les temps obscurs* قائلا : "كان وصول بدو العرب بمثابة شرارة في برميل بارود ، فقد توحد العرب وبدو زناتة لما في طباعهم من تشابه من أجل هدف واحد هو الاستيلاء على أراضي التل الخصبة والممطرة".

واستغل الزناتيون وجود العرب البدو لقلب الميزان لصالحهم، وهكذا ساعدت زناتة العرب البدو للقضاء على الدولتين الصنهاجيتين. ومع أن زناتة تفاجأت في أول الأمر بدخول هذا العنصر الجديد أي العرب وتملكتها الريبة و الخوف، فبعد انهزام الملك الصنهاجي المعز بن باديس أمام البدو العرب قرب القيروان، جذبت زناتة جيشا أخر لمقاومة العرب، ولكنها هزمت هي أيضا، ولذلك سلكت إستراتيجية جديدة: احتواء العرب والاستفادة من قوتهم دون مواجهتهم.



وهكذا حصل تحالف قسري فرضته موازين القوى بين العرب وزناتة ( مرغم أخاك لا بطل ).

وتشكلت هجرة جديدة هذه المرة: هجرة باتجاه الغرب، بعد إن كانت هجرة نحو الشمال، إذ أفسحت زناتة الطريق أمام توغل البدو العرب، فهاجرت قبائل بني مرين وبني عابد الوادي التي كانت تقطن الزاب وغرب الأوراس، هاجرت غربا و أسست دولتين بكل من تلمسان وفاس.

إذن، فقد كانت هناك مصلحة متبادلة بين القبيلتين البدويتين: العربية والزناتية. إذ استغل كل منها الآخر: استغل البدو العرب بدو زناتة للحصول على المزيد من الأراضي على حساب الدولة النظامية القائمة، واستغل البدو الزناتيون بدورهم البدو العرب للثأر من الدولة الصنهاجية التي كبحت تقدمهم نحو الشمال والتأسيس لدولتين نظاميتين لأول مرة في تاريخ زناتة، دولة بني عابد الوادي بتلمسان و دولة بني مرين بفاس. فكان دخول العرب جاء هدية من السماء لزناتة التي انتظرت طويلا مثل هذه الفرصة، ودفعت لذلك ثمنا غاليا وتضحيات جسمية وتكبدت هزائم عسكرية نظير تحالفها مع الأمويين ضد الفاطميين ووكلائهم الصنهاجيين الذين منعوهم من إقامة دولة خاصة بهم. وقد سهل من مهمة بني هلال من أجل التوغل في السهول الخصبة، الفراغ السكاني الذي تركه الأمازيغ وراءهم لأنهم قبل ذلك كانوا قد استنزفوا طاقاتهم في الحروب البينية، بين صنهاجة وكتامة من جهة وبين زناتة من جهة أخرى، والهجرة إلى الأندلس (اسبانيا) للعمل في الجندية مثل قبائل الزيريين وبني برزال والزناتيين الذين أسسوا في اسبانية دولا في ما يعرف ب (دول ملوك الطوائف) ولكن الفراغ الأعظم والأكبر تركته القبائل الكتامية التي هاجرت مع الملك المعز لدين الله الفاطمي للاستيلاء على مصر وهناك أسست مدينة القاهرة والجامع الأزهر.

كل هذه الهجرات أفسحت الطريق أمام تقدم البدو الهلاليين الذين كان همهم الوحيد الاستيلاء على أراضي الشمال الإفريقي الخصبة. وأرى أن من المفيد هنا تسجيل فرضية كل من المؤرخين شارل أندريه جوليان وإميل قوتيي بخصوص استعراب قبلية زناتة، وكذلك نظرية

الأستاذ المغربي محمد شفيق بخصوص استعراب الأمازيغ و موجة التشرف .

## 1- رأي المؤرخين شارل أندريه جوليان و أميل قوتيي استعراب زناتة

اغتنمت قبائل بني هلال الاضطرابات المزمنة التي كانت تنتاب المغرب الأوسط، في أرجاء التل واستقلت بأمرها. وكان الأديعاء يعتمدون على نصرتها و يجازونها بالاقطاعات وحق الجباية، وإن الحالة التي وصفها ابن خلدون لم تزدها الأيام إلا تفاقمًا. فقد كتب سنة 1380 م ما فحواه: " بسط العرب نفوذهم على البسائط ومعظم المدن، وأصبح سلطان (بني عابد الوادي) لا يصل إلى الأماكن القاصية عن مركز الدولة، ولا يتعدى حدود الأراضي الواقعة على البحر والتي ملكوها في أول أمرهم ، فلقد ضعف نفوذهم أمام سطوة العرب. وكانوا ساهموا في تقوية هذا العنصر البدوي بمنحه الأموال الطائلة وإقطاعه الجهات الواسعة وتسليمه موارد عدد كبير من المدن"

غير أن البلاد التي كان العرب يتوسعون في ربوعها مثل ما يمتد الظل الذي تعكسه الجبال عند انحسار النهار – حسب عبارة ابن خلدون – لم تكن خالية من أهلها . وذلك أن قبائل زناتة بقي لها من القوة رغم الحروب وما استتبع ذلك من خراب، ما مكنها من مشاغبة سلاطين زناتة والحد من سرعة توسع البدو، إلا أن زناتة سرعان ما تواروا عن مسرح التاريخ. فهل طردهم العرب ؟ وكيف قدروا على ذلك بينما لم يتجاوز عددهم حوالي منتي ألف ضائعين في ملايين من البربر. وكيف نفسر أن تكون القبائل العربية الموجودة اليوم انحدرت جميعها من الغزاة الهلاليين ؟

أليس من الأرجح أن يكون قد حصل الانصهار أثناء القرن الخامس عشر بين زناتة والعرب الرحل بفضل تشابه عاداتهم ؟ بحيث يمكن القول بأن عرب المغرب ليسوا سوى قبائل زناتة قد تعربت . ونتيجة لذلك حل محل العداوة القديمة بين البربر والحضر والبدو الذين كانت اللغة مع ذلك عامل وحدة بينهم، حقد أشد ضراوة يباعد بين شعبيين

متنافرين كأعمق ما يكون التنافر، أي العرب أو زناتة المستعربين الذين ذهب بهم الظن أنهم عرب، وبين البربر الصامدين في وجه التعريب، وبذلك ظهر في بلاد البربر سبب آخر من أسباب الاضطرابات زاد الطين بلة. وتلك هي على كل، الفرضية التي قدمها (أ. ف. قوتيي) وهي من أخصب ما قدم من الافتراضات لتبديد ما خيم على القرون الوسطى المغربية من سجع الظلام.

2- وجهة نظر الأستاذ محمد شفيق حول استعراب الأمازيغ وموجة التشرف :

كان العامل الأول والأقوى في استعراب من استعرب من الأمازيغ خلال القرنين الأول والثاني هو صدق العقيدة الإسلامية وتقديس اللغة العربية والتعلق بالقبلة.

وكان طريق الاستعراب هو ممارسة الشعائر الدينية وحفظ القرآن. ولكن عاملا آخر ترتب عن وجود العامل الأول، وهو العامل السياسي والاجتماعي. ولا يخفى أن الإسلام لا يفضل الدين عن الدنيا. ومن نتائج ذلك أن كل ممارسة سياسية توجب الدعوة باسم الإسلام. وان مشروعية الحكم و السلطان لا يمكن أن تستمد إلا من التقاليد الإسلامية. وبما أن التقاليد الإسلامية السنية تستوجب على المرشح للإمامة (أي الحكم) أن يكون قرشياً فقد صار من المحتم على كل ذي طموح سياسي أن يثبت قرشيتة. فتبارى الناس في ذلك (الإثبات) وأنبت المغرب غابة من الشجرات القرشية وشجرات الانتماء إلى الدوحة النبوية التي بها يتوصل إلى المكانة الاجتماعية المؤهلة لمشاركة أهل الحل والعقد في اتخاذ القرار السياسي. وهكذا تتسلسل مواقف الفرد من انقطاعه عن عشيرته الأمازيغية في مرحلة أولى، إلى تعلمه اللغة العربية وعلوم الدين، إلى اندماجه في وسط خضري أو قروي غير الوسط الأصلي، إلى إخراج شجرة يعلن بها انتسابه إلى بيت الشرف النبوي، أو على الأقل إلى قبيلة قريش. هذه الظاهرة لازمت المغاربة من عهد الموحدين. ولعل تفاقمها هو الذي حمل (موسى بن أبي العافية المكناسي) على اضطهاد كل من يدعي الشرف. وعلى كل حال، كانت هذه الظاهرة عاملا من

أقوى عوامل الاستعراب، تستدرج الأمازيغي من طلب الرزق أو علوم الدين، إلى التماس المكانة الاجتماعية أو السياسية، إلى التنكر لأصله. ولنا مثال في كل من باديس الصنهاجي، أمير غرناطة بالأندلس، الذي قال:

"نحن لم نصل إلى الملك مثل الآخرين بادعاء الانتماء إلى السلالة النبوية، وإنما انتزعنا الملك بسيفنا". وكذلك موقف الملك الأمازيغي يغمراسن بن زيان، ملك تلمسان، عندما وضع بين يديه أحد المتملقين وثيقة تثبت انتماءه للدوحة النبوية فقال: "قد يكون ذلك شيئا جميلا، ولكننا انتزعنا الملك بسيفنا"

وإن عدم وجود مؤرخين وباحثين أمازيغ في تراثهم ولغتهم وأصولهم، سبب جدلا مزنا بين من ينسبهم إلى أصول شرقية وإلى أصول غربية.

حتى ابن خلدون نفسه كان موقفه متذبذبا. فمن جهة يؤكد أن البربر متأصلون في بلاد المغرب ولم ينزحوا إليها سواء من الشرق أو من الغرب. ومن جهة أخرى، يستثني قبيلتي كتامة وصنهاجة ويثبت أصولهما الشرقية معتمدا على ادعاءات هاتين القبيلتين. وهذا تناقض صارخ. إذ كيف ينقسم شعب برمته، شعب منسجم في اللغة والعادات والتقاليد إلى أصليين مختلفين.

وهنا نلاحظ ظاهرة غريبة وفريدة من نوعها بين الشعوب: هذه الظاهرة هي ادعاء شعب يعيش على رقعة بمثابة قارة، ادعاؤه الانتماء و الانتساب إلى شعب آخر يعيش على مساحة تمثل نسبة 1 % إلى مساحة أرضة مثل اليمن وفلسطين؟

وقد لاحظنا خصوصا في القرون الوسطى أن جل القبائل الأمازيغية الكبرى كانت تنتحل لنفسها أصولا شرقية. وبعد تفكك معظمها بعد وصول عرب بني هلال وسليم، وخاصة في العهد التركي، أصبح الانتساب إلى الشرق فرديا هذه المرة. ففي كل ركن من أركان المغرب نجد أولياء وأفرادا يرفعون في وجه العامة شجرات نسب تحيلهم إلى العائلة النبوية. وهذا أيضا (طابو) من الطابوهات التي يتجنب المؤرخون المحدثون التطرق إليها بالتحليل والنقد.

وفي هذا الصدد يقول الشاعر عبدة ابن قيس الأندلسي  
الأأيها الساعي لفرقة بيننا      توقف هداك الله سبيل الأطايب  
فأقسم أنا والبرابر إخوة      نمانا وهم جد كريم المناصب  
أبونا أبوهم قيس عيلان في الذرى      لهم حرمة تشفي غليل المحارب

ويقول الشاعر الأمازيغي يزيد ابن خالد الزناتي الأندلسي يمدح قومه

أيها السائل عن أحسابنا      قيس عيلان بنو العز الأول  
نحن ما نحن بنو بر الندى      عرف المجد و في المجد دخل  
حسبك البربر قومي إنهم      ملكوا الأرض بأطراف الأسل

وقال شاعر بني مريين (من قبيلة ملزوزة) أبو فارس عبد العزيز ابن عبد الواحد ابن محمد الملزوزي، يصف التحولات اللغوية في عهده (قتل سنة 697 هـ)

فجاورت زناة البربرا      فصيروا كلامهم كما ترى  
ما بدل الدهر سوى أقوالهم      ولم يبدل منتهى أحوالهم  
فانظر كلام العرب قد تبدلا      وحالهم عن حاله تحولا  
لا يعرفون اليوم ما الكلام      ومالهم نطق ولا إفهام  
وان تمادت بهم الأحوال      لم تبق في الدهر لهم أقوال  
كذلك كانت قبلهم مريين      كلامهم كالدر إذ يبين  
فاتخذوا سواهم خليلا      فبدلوا كلامهم تبديلا

وهكذا نرى سعي هؤلاء الشعراء للإشادة بنسب زناة وبني مريين العربي، مع إنها قبائل أمازيغية أصلية. ونستشف من خلال قراءتنا لهذه الأشعار أن أصحابها مستعربون بدليل ركافة ورداءة هذه الأشعار.

**المراجع:**

- \* القبائل الأمازيغية – بوزياني الدراجي – دار الكتاب العربي 2007  
\* ثلاثة وثلاثون قرناً من تاريخ الأمازيغ – محمد شفيق.  
Le Passé de l' Afrique du nord –Emile Felix Gautier\*  
Histoire de l' Afrique du nord –Charles André Julien\*  
1- تاريخ خلع القائد بن حماد للفاطميين هو تاريخ غير مضبوط لكن يمكن أن يكون متقارباً مع التاريخ الذي انفصل فيه المعز بن باديس عن القاهرة، كما أنه هناك من يرى أن الحماديون عادوا مرة أخرى إلى حظيرة الدولة الفاطمية حسب ما ذهب إليه ابن خلدون في كتاب العبر، وهناك من يرى أنه خلع طاعة بني عبيد ودخل في طاعة بني العباس إلى آخر حياته. أنظر: روجي إدريس الهادي . الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12، ترجمة الساطي حمادي، ج1. ط1. بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1992، ص 285.  
1- عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ( القاهرة ، دار الكتاب المصري ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، 1420 هـ/ 1999م) ج6 ، ص.587.  
1- محمد بن عبد المنعم الجميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط 2 ، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة ، مطابع دار السراج 1980، ص.496  
1- عبد الرحمان ابن خلدون ، المرجع السابق، م7، ص. 131 .  
1 - Ch., A., JULIEN, Histoire de l'Afrique de nord des origines à 1830, Paris, éd. Payot, 1994 , p.415  
1 - Ibid., pp : 413 ,414.  
1- نفس المرجع ، ج 1 ، ص ص 187،188.

- 1- عبد الواحد المراكشي . المعجب في تلخيص أخبار أهل المغرب. ك  
3. تحقيق محمد سعيد العريان، الجمهورية العربية المتحدة : نشر المجلس

الأعلى للشؤون الإسلامية بالجمهورية العربية المتحدة، لجنة إحياء التراث الإسلامي . [د،ت] ، 294ص  
1- أحمد بن محمد الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان والأندلس، ص90-92،  
1- ياقوت الحموي، معجم البلدان، م 1، بيروت، دار صادر، 1988.ص  
339.

1- عبد الله البكري ، المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب ، الجزائر ، 1911، ص.49.

<sup>1</sup> - Mouloud GAID , Les Berbères dans l'histoire – De Ziri à Hammad-, Alger, [ s.é.],T :05,p.103.

<sup>1</sup> -Ibid.

<sup>1</sup> - Ernest MERCIER, Histoire de l'Afrique septentrionale(Berbérine),] en ligne ] \_Paris, 1868, (livre numérisé par Alain Spenato).accès internet : <URL : <http://www.algerie ancienne.com>>

<sup>1</sup> - جورج مارسية، بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل، الإسكندرية ، 1991، ص.201.

قائمة المرجع

أ - الكتب العربية:

1 - الإدريسي أحمد بن محمد ، صفة المغرب وأرض السودان والأندلس.  
2 - البكري عبد الله بن عبد العزيز ، المغرب في ذكر إفريقيا والمغرب ، الجزائر ، 1911.

3 - ابن خلدون عبد الرحمان، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأکبوا الأجزاء:  
1، 6 ( . القاهرة، دار الكتاب المصري، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1420 هـ/ 1999م)،.

- 4 - الحموي ياقوت ( شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ) ، معجم البلدان، 5 ج ،، ج 1 ( بيروت ، دار صادر ، 1988).
- 5 - الجميري محمد بن عبد المنعم ، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط2 ، 1980 .
- 6- روجي إدريس الهادي . الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12، ترجمة الساحلي حمادي ، ج 1. ط 1. بيروت : دار الغرب الاسلامي ، 1992. 488ص.
- 6- مارسية جورج ، بلاد المغرب وعلاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل، مراجعة مصطفى أبو ضيف أحمد ، مصر ، مكتبة الإسكندرية ، 1991 ، الترقيم الدولي : 4-988-03-0059.
- 7 - المراكشي عبد الواحد ، المعجب في تلخيص أخبار أهل المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان، الجمهورية العربية المتحدة : نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالجمهورية العربية المتحدة، لجنة إحياء التراث الاسلامي [د،ت] ، 494ص.
- ب - المراجع الفرنسية:

8- GAID Mouloud, Les Berbères dans l'histoire :De Ziri à Hammad, Alger, [ s.a],T :05.

9 -JULIEN,Charles André ,Histoire de l'Afrique de nord des origines à 1830, Paris ,éd.Payot ,1994 .

10- MERCIER Ernest , Histoire de l'Afrique septentrionale(Berbérie), [en ligne ]\_Paris , 1868 ,

( livre numérisé par Alain Spenato).accès internet : <URL :http://www.algérie ancienne.com>





## صفات القائد السياسي العسكري في دولة المرابطين الأمازيغية الإسلامية "عبد الله بن ياسين أنموذجاً"

الأمير بوغادة  
أستاذ مساعد جامعة محمد خيضر بسكرة

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سيرين علي الجزولي، أصله من قرية "تمامناوت" في طرف الصحراء. درس على يد فقيه السوس "وجاج بن زلوا"، رحل إلى الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأقام بها سبع سنين، واجتهد في تحصيل العلوم الإسلامية فكان بذلك من خيرة طلاب الفقيه "وجاج بن زلوا" الذي أرسله إلى قبائل صنهاجة ليلقنها أمور الدين الإسلامي رفقة يحيى بن إبراهيم. وقد دخل عبد الله بن ياسين في مضارب ومواطن التوارق عام 1038م، فاستقبله أهلها واستمعوا له، وأخذ يعلمهم، فكان تعليمه باللغة العربية لطلبة العلم، والإرشاد الديني للعامة باللغة الأمازيغية. ويمكن أن نقول أن عبد الله بن ياسين قد نجح في مهمته الدعوية لأسباب جد مهمة يجب علينا أن نتعرف عليها ألا وهي ما وهبه الله وقومه الأمازيغ من صفات قل ما نجدها عند غيرهم هذه الصفات التي قسمها الدكتور علي محمد الصلابي:

أ/صفات فطرية ب/ صفات مكتسبة ج/صفات عقلية د/صفات  
حركية

### أ/صفات فطرية:

**الذكاء:** فكان رحمه الله عميق الفهم، صاحب حجة، يقيم الدليل على خصومه من الفقهاء المحليين الذين تحالفوا مع الأمراء والأعيان للقضاء عليه أو طرده.

كما ان اختياره لمكان أنسب لتربية أتباعه وتعليمهم يدل على ذكائه وبعد نظره ويظهر ذلك في حروبه التي خاضها لتوحيد القبائل الصنهاجية، ثم انتقاله للقضاء على المخالفين له في المنهج والمعتقد والتصور.

**الشجاعة:** حيث أنه دخل الصحراء داعيا إلى الله تعالى مع أن غيره من تلاميذ أبو عمران الفاسي اعتذروا وكذلك الحال مع تلاميذ وجاج بن زلوا.

وامتاز بشجاع وصلابة عظيمة في دعوته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وفي جهاده حتى أنه استشهد في إحدى معاركه ضد أعدائه.

**المهابة:** قد كان عبد الله بن ياسين مهيبا قويا شديدا، يخوض الحروب بنفسه ويتقدم غيره في ميدان الفرسية بل جعل من منهجه الذي ربي عليه أصحابه في هذا الجانب قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم )

**الأمانة:** من الصفات الفطرية التي تميز بها القائد الزعيم الأمازيغي لدولة المرابطين الأمانة، فحين وجدج عبد الله بن ياسين أن القلوب التفت حوله وأصبح الأمر النهائي في قبائل صنهاجة، لم ينافس الأمير يحيى بن ابراهيم في منصبه، بل نجده لم يتجاوز حدوده، ولم يتدخل في سلطات الأمير يحيى مع مقدرته على إزاحته وابعاده من الطريق ليتبوأ الزعامة وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أمانة عبد الله بن ياسين بصفة خاصة وأمانة الأمازيغ بصفة عامة.

**الحياء:** الحياء شعبة من شعب الإيمان كما جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وقد جبل عليه الأمازيغ كبيرهم وصغيرهم، يظهر ذلك جليا عند القائد للدعوة فلم يعارض ولم يناقش بل استجاب لشيخه، كما نلاحظ ذلك في سيرته مع يحيى بن ابراهيم الذي عرض على عبد الله رباطا في ضفاف نهر السنغال فأجابه ولم يعارضه أيضا.

**الحلم:** والحلم صفة لا يتصف بها إلا الأقوياء، وعبد الله بن ياسين قوي كما رأينا لذلك اتصف بهذه الصفة، فنجده عندما تمكن من بعض قبائل صنهاجة التي عارضته كقبيلة جدالة ولمتونة حاربه فغفا عنها وأحسن إليها، وكل من انصاع لأحكام الله من المخالفين والمحاربين له عفا عنهم. **الجاذبية الفطرية:** وهذه الصفة بارزة للعيان في شخصية القائد عبد الله بن ياسين وبها جذب قلوب أبناء الصنهاجيين بدون تكلف، وهي من أقوى العناصر التي تكونت منها شخصيته. لقد استطاع أن يملك قلوب من جالسوه وسمعوا حديثه من أمثال يحيى بن إبراهيم، ويحيى بن عمر، وأبي بكر بن عمر، وغيرهم من قادة الصنهاجيين وشيوخهم.

#### ب/ الصفات المكتسبة:

**الصدق:** وظهر ذلك في أقواله وأفعاله ومخاطبته للناس، فكان صادقاً في دعوته وفي عرضها، وفي مخاطبته للناس، ولا يهاب أحداً، ولا يخشى في الله لومة لائم، وقد شهد على ذلك كل المؤرخين بما فيهم من طعنوا في دولة المرابطين الأمازيغية.

**ضبط النفس والابتعاد عن التهور والانفعال:** ويظهر ذلك جلياً في شخصية ابن ياسين عندما باشر الأمير بن عمر اللمتوني القتال، وأمضى الحرب بنفسه فأدبه ابن ياسين وضربه بالسوط عشرين مرة، وبين له أن ذلك خطأ لأن الأمير لا يقاتل وإنما يقف يحرض الناس ويقوي نفوسهم فإن حياة الأمير حياة جيشه، وموته فناء لجيشه كما يدل على نفسه، وابتعاده عن التهور أنه لم يعلن الجهاد حتى أعد عدته واستعمل أمره وأخذه بمراحله، وربى رجاله، ولذلك عندما خاض جهاده كان موفقاً منصوراً، ولم تستطع القوة المعارضة له أن تقضي عليه.

**الإدارة القوية:** فقد شاهد المؤرخون المسلمون كانوا أم لا أن عبد الله بن ياسين كان ذا همة وعزيمة لا تهزها الجبال، آمن بسمو دعوته وقديسية فكرته، وعزم على أن يعيش لها ويموت في سبيلها، وأدرك أن الأمانة التي يحملها ودخل بها الصحراء الكبرى تبعاتها عظيمة، فعليه أن يصبر في عزيمة قوية، وإيمان ثابت ويقين ولا يدخله تردد ولا شك، فكانت

النتيجة أن تحقق إعزاز دين الله في تلك الصحاري القاحلة، فأصبحت مليئة بالدعاة والفقهاء والعلماء.

#### ج/الصفات العقلية :

**القدرة على الفهم والاستيعاب:** استطاع ابن ياسين أن يفهم ويستوعب المناهج العلمية التي كانت في زمانه من فقه وحديث ولغة وأصول وغيرها من العلوم، كما أنه استوعب الظروف السياسية في زمانه، واستطاع أن يستفيد منها لدعوته.

**النظر الثاقب والقدرة على الوصول إلى القرار الحاسم دون تردد** ويظهر ذلك في سيرة القائد عبد الله بن ياسين عندما طلب فقهاء سجلماسة ودرعة عام 447هـ، منه القدوم ليخلصهم من الحكام الظلمة زناته المغراويين ومن أميرهم "مسعود بن انودين"، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة، فأشاروا عليه بمد يد العون لهم، وقالوا له: "أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر على بركة الله". فأخذ قراره الحاسم وتحركت جموع المرابطين الأمازيغيين إلى بلاد درعة، واشتبكت مع المغراويين الذين انهزموا أمام المرابطين وتشتت جموعهم، ودخل ابن ياسين سجلماسة، وأصلح أحوالها وقدم عليها عاملاً من اتباعه وجعل فيها من جنوده ورجع إلى الصحراء.

#### د/الصفات الحركية :

**الشعور بالمسؤولية:** بدأ الشعور بالمسؤولية في حياة ابن ياسين منذ أن رغب في التحصيل والتزود للعلم والاستعداد للدعوة وازداد ظهور ذلك في شخصيته عندما دخل يحيى بن إبراهيم في قبائل صنهاجة حيث تولد في أعماقه شعور بمسؤولية الدعوة في هذه القبائل.

**النظام والدقة:** ظهرت صفة النظام في شخصية ابن ياسين عندما تكاثر عدد المريدين في رباطه الذي اتخذه قريباً من نهر السنغال حيث وضع شروطاً في قبول كل جديد لكي يحفظ صفو جماعته من المخربين، فكان ينتقي أظهر الناس نفساً وأوفرهم قوة وأقدرهم على تحمل المشاق، ومن توفرت فيه الشروط، وأصبح بذلك رباطه قمة في النظام والدقة، واختار

## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

لإدارته أحد الأمراء، وفي الأمور المهمة كان الأمر شورى بين الجماعة الإسلامية المرابطة.

**القدرة على التعامل مع الناس:** باختلاف أصنافهم (أمراء- عوام- تجار وغيرهم من طبقات المجتمع الصنهاجي) فكان رقيق الشعور ثائر العاطفة، يقظ القلب، بعيد الآمال، كبير المطامح في الإصلاح. **التصرف الحكيم السريع أمام المفاجآت:** وهي صفة قل ما نجدها عند غيره، حيث كان يجد الحل المناسب، وفي الوقت المناسب لكل مفاجأة تطرأ له، سواء في الحروب أو غيرها.

وفي الأخير لا بد أن نشير إلى أن هناك كثير من حاول أن يلبخ سيرة القادة العظماء وأخص بالذكر القائد عبد الله بن ياسين إلا أنهم اصطدموا بحقائق تاريخية ناصعة دلت على عظمة هذا القائد وغيره من القادة ودلت على عظمة هذه الدولة التي تأسست بإيحاء وإيعاز وسواعد أمازيغية بالدرجة الأولى وحمى وسادت وتوسعت بفضل تمسكها بمبادئ الشريعة السمحاء



## بعض الجوانب من الحياة الثقافية في الدولة الزيانية

عزيز نعمان

جامعة مولود معمري-تيزي وزو

قامت الدولة الزيانية في المغرب الأوسط واستطاعت أن تصمد طيلة ثلاثة قرون ( 1236-1554). وقد نشأت كما هو حال الدولتين الحفصية- بالمغرب الأدنى- والمرينية- بالمغرب الأقصى، على أنقاض الدولة الموحدية. ومن جملة ما قيل عن دولة بني زيان في مسألة المفاضلة بينها وبين الدولتين الجارتين ما أكده المؤرخ "دوفرك" (Dufourcq)، على لسان الأوروبيين، بأنها "أكثر الأراضي المغربية أصالة (...). إذ شكلت السلطنة الزيانية عالما فريدا من نوعه، عالم إفريقيا الحقيقي (le véritable monde africain)"<sup>(150)</sup>.

و مما كان عاملا حاسما في ذلك التميز موقعها الجغرافي الذي منحها موضعا وسطا في المغرب، يضاهي موضع القلب من الجسد، وكذا عاصمتها "تلمسان" التي لم ينقطع القدماء عن مدحها، وهو ما يللمسه متتبع تاريخ البلدان والشعوب خاصة عند اثنين من أشهر مؤرخي ذلك العصر هما الأخوين "عبد الرحمن" و"يحيى بن خلدون" في كتابيهما "المقدمة" و"بغية الرواد" وفق هذا الترتيب. وكانت تلمسان مدينة عريقة في تاريخها وواسعة في عمرانها وقد عظم شأنها أكثر بعد ذلك، وذلك ما عبر عنه "عبد الرحمن" بلغه تصويرية جذابة حينما قال: "إلى أن نزلها (تلمسان) آل زيان واتخذوها دارا لملكهم وكرسيا لسلطانهم، فاخطوا بها

<sup>150</sup> -Mahfoud Keddache, l'Algérie médiévale, 2ème édition, ENAI, Alger, 1992, p.142.



القصور الموقنة والمنازل الحافلة واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب"<sup>(151)</sup>.

وباللغة الوصفية نفسها يحدثنا "يحي" عن ماضي (أصول)

المدينة وحاضرها فيقول: " ودار ملكهم (الزيانيين) فيه وسط بين الصحراء والتل، تسمى بلغة البربر تلمسن، كلمة مركبة من تلم، ومعناه تجمع، وسن ومعناه اثنان، أي الصحراء والتل فيما ذكره شيخنا أبو عبد الله الابلي رحمه الله، وكان حافظا بلسان القوم. ويقال تلتشان. وهو أيضا مركب من تل ومعناه لها، وشان أي لها شان. مدينة عريقة في التمدن لدنة الهواء عذبة الماء، كريمة المنبت اقتعدت بسفح جبل (...) عروسا فوق منصة"<sup>(152)</sup>. فما من شك إذن أن تلمسان بموقعها المميز وخيراتها الوفيرة كانت وطنا ثانيا للزيانيين إلى جانب وطنهم الأم الممتد على طول المغرب الأمازيغي في شموليته وشساعته، ومثلما احتضن ذلك الوطن الصغير العظيم الشأن-على حدّ تعبير "يحي بن خلدون"-بني عبد الواد<sup>(\*)</sup> وهياً لهم ظروف تأسيس دولتهم فإنهم سعوا للذود عنه والاستماتة من أجله ورفع راية الإسلام<sup>(\*\*)</sup> عاليا في سمائه ونشر تعاليم تلك الرسالة الربانية في كافة ربوع وأرجائه.

<sup>151</sup>- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبرو وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج14، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1996، ص.108.

<sup>152</sup>- أبو زكرياء يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات، ج1، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ص.ص85-86.  
\* -يفيدنا يحي بن خلدون بأصول بني عبد الواد فيقول مفضلا: "وهم (قبيل عبد الواد) فخذان، أحدهما بنو عبد الواد، وبهذا الاسم عرف الجميع، تغلبيا، وأصله عابد الوادي، رهبانية عرف بها جدهم من ولد سجيح ابن واسين بن يصلين بن مسري بن ركيا بن ورسيع بن مادغيس الأبتري بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، فيما نما إلى علمي، منقولا عن تاريخ ابن الفياض وسواه" (ينظر: أبو زكريا يحي بن خلدون، م.س، ص.186).

\*\* -يورد يحي بن خلدون رواية ينسبها إلى عبيد الله الذي قرأها في كتاب عمرو بن علي الأندلسي عن حديث للرسول (ص) أشارت إليه ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها وهي تحبيب رجلا من البربر أتى المدينة أيام وفاة الرسول (ص)، ومن بين ما جاء في نص الحديث: "(...) يا فاطمة قد جعل الله في قلوب البربر لذريتي رحمة، وسيكون قوم من البربر بالمغرب على اليقين والدين الصحيح إلى يوم الدين (ينظر: يحي بن خلدون، م.س، ص.85).

كما انصب اهتمام الزينيين على الجانب الثقافي فأولى قادة الدولة، على تتابعهم واختلاف فترات حكمهم، عناية كبيرة للحياة الفكرية تجلت في "الاعتبار الكبير الذي حظي به العلم ورجاله"<sup>(153)</sup>، ومن آيات ذلك إنشاء أول مدرسة للمغرب الأوسط في عهد "أبي حموموسى الأول" ( 707-718) وكذلك تأسيس المدرسة الناشفينية المدعمة بمكتبة كبيرة في عهد "محمد أبو تشفين الأول" ( 718-737)، إلى جانب مساهمات "أبي حموموسى الثاني" (760-791) القيمة التي طالت الأدب والنقد، هو من كان شاعر فذا وحاكما محنكا.

لم تكن الحياة الثقافية لتنال قسطها الوافر من الرعاية لو لم يحتضنها المجتمع الزياني الذي كان-على حد تعبير "جورج مارسيه" (Georges Marçais) مجتمعا "مهذبا، متدينا ومتقفا"<sup>(154)</sup>، وبيان ذلك عند "يحيى بن خلدون" (الذي عاش في كنف ذلك المجتمع وعاش عن قرب أفرادها، وكان ذلك ما بين 734 هـ - 1333م- و 779 هـ-1378م-) وصفه إياه بالمجتمع "المبارك" الذي خبر أفراده "الأيام وابتلوا الدهور، وسبروا الأحلاء والأمرار. فما يراغون لواقع، ولا يأبهون بعسر ولا يسر، إلى الدين المتين، والعفاف والصون، والوفاء بالعهد وحفظ الجوار، ورعي الذمام والحياء من الله والخلق، على هذا درج سالفهم ونشأ خلفهم وبه ازدان شيخهم وشابهم"<sup>(155)</sup>. ومن جميل ما يفهم من هذه الشهادة التاريخية التي يمنحها لنا رجل تاريخ أن ثقافة بلد من البلدان مرهونة بأخلاق أفراد المجتمع، بل إنها متوقفة على حصول تواصل بين الأجيال والتواصل المقصود ها هنا يتحقق على صعيد السلوك والعقلية الجماعية. ويمكننا أن نجزم قائلين إن ما ساهم مساهمة فعلية وفعالة في صمود أركان الدولة الوادية طيلة ثلاثة قرون هي تلك المناعة الثقافية التي تحصن بها جسد المجتمع والتي تعد في الواقع ميراثا تركه الأسلاف من الأمازيغ للأجيال المتعاقبة، وما وُرت هي خصال تدفع الفرد والمجتمع -

<sup>153</sup> -Amar Amoura, Résumé de l'histoire de l'Algérie, Éditions RAIHANA, Alger, 2002, p.130.

<sup>154</sup> - Charles-André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord-Des origines à 1830, 3<sup>ème</sup> édition, Editions Payot et Rivages, Paris, 1994, p.520.

<sup>155</sup> -يحيى بن خلدون، م. س، ص.186.

على حد سواء- إلى المحافظة على كيانه إذ ينتسبون إلى قوم "المهم ولع شديد واقتدار غريب على الاحتفاظ بعوائدهم وأخلاقهم ولغتهم (...). وقد عاشوا نحو ثلاثة آلاف عام تحت احتلال الأمم المختلفة المتباينة. لا يزالون محافظين على كل مميزاتهم الذاتية حتى أحكامهم الخاصة" (156).  
مصل المناعة إذن خليط من العادات والأخلاق واللغة التي تنصهر في بوتقة الفكر التي تصنع قوة البلاد والعباد على صعيد دائم باق هو صعيد الثقافة.

ذاكرة الأهالي العائدة إلى مجاهل القرون هي ما أتاح للدولة الزيانية أن "تستمر ولو لحين (القرن التاسع الهجري-الخامس عشر ميلادي)، كما أتاحت للحياة الفكرية والأدبية فيها أن تنمو على وجه من الوجوه" (157) ووقود تلك الذاكرة ثقافة شعبية أصيلة مصدرها السكان الأصليون من الأمازيغ الذين سعوا للحفاظ على ما امتلكوه من أمثال وقصص شعبية وحكايات قديمة قدم الإنسان، وكانت تلك الملكية حقا شرعا لبني عبد الواد من منطلق انتمائهم إلى زناتة البربرية، والملكية شعبية عامة لم يوليها المؤرخون كامل اهتمامهم مع أنها من العوامل المساهمة في فهم مخيلة المجتمع واستنباط نظام حياة أفراده على أكثر من صعيد، إذ تصلح أن تكون مدونة فكرية حية من طراز خاص تعين الدراسين على الوقوف عند ما أنتجته الطبقات الشعبية الواسعة من نشاطات فنية يحتل الأدب فيها بشعره ونثره موضع الصدارة. ومن جملة ما يحدثنا به "عبد الرحمن بن خلدون" بهذا الصدد ما كان يصدر من كاهن ينتمي إلى قبيلة "غمرت" الزناتية- وهو كاهن ذاع سيطه قديما وحديثا- من تنبؤات بخراب سيلحق بتلمسان وذلك بلغته ولغة أجداده؛ فيقول عنه: "(...) وكان في القديم من غمرت هؤلاء كاهن زناتة موسى بن صالح مشهور عندهم حتى الآن، ويتناقلون بينهم كلماته برطانتهم على طريقة الرجز، فيها إخبار بالحدثان فيما يكون لهذا الجيل الزناتي

156- أحمد توفيق المدني، قرطاجنة في أربعة عصور -من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص.18.

157- الطاهر محمد توات، آداب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص.7.

## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

من الملك والدولة، والتغلب على الأحياء والقبائل والبلدان. شهد كثير من الواقعات على رفقا بصحتها، حتى لقد نقلوا من بعض كلماته تلك ما معناه باللسان العربي أن تلمسان ينالها الخراب، وتصير دُورها فدنا حتى يثير أرضها حرّات أسود بثور أسود أعور. وذكر الثقات أنهم عاينوا ذلك بعد انتشار كلمته هذه أيام لحقها الخراب في دولة بني مرين الثانية سنة ستين وسبعمائة (...)"<sup>(158)</sup>.

إلى جانب ما كان متوفرا لدى السكان الأصليين من ثقافة عريقة متجذرة ضاربة في القدم كان للعرب الوافدين أيضا دور فعال في منح صبغة دينية وروحية لمقومات تلك الثقافة لتفتح على المشرق الإسلامي في كل ما هو قصص وأشعار وأساطير تعكس تجربة إنسانية أخرى ساهم الإسلام في تقويمها ومنحها بعدا روحانيا. وتضاف إلى فكرة الانفتاح على الآخر فكرة الغلبة التي يعد "عبد الرحمن بن خلدون" أبرز القائلين بها في معرض حديثه عن الدولة ونشأتها، ففي حالة المغرب الأوسط-بل المغرب كله-كان "اللسان العربي غالبا يغلب دولة العرب، وظهور الملة العربية بالكتاب، والخط بلغة الدولة ولسان الملك، واللسان العجمي مستتر بجناحه مندرج في غماره"<sup>(159)</sup>. ولم تكن تلك الغلبة لتنتأى في معزل عن الدين وقيمه الروحية.

لم يكن المشاركة ودهم من تفاعلوا مع الزيانيين بل فتحت تلمسان أبوابها أمام "الأندلسيين" النازحين بعد طرد الإسبان لهم"<sup>(160)</sup>، فرحب "يغمراسن بن زيان" (633هـ-681هـ) بهم وخصّ برعايته رجال الأدب والفنانين واتخذهم أصدقاء له وأقرباء إليه -هو الذي لم ينل حظا وافرا من العلم- "فساعده مقابل ذلك على تزيين مدينته ومنحها رونقا لم يكن يضاهيه سوى ذلك الذي عرفته قرطبة التي ضيّعها المسلمون"<sup>(161)\*</sup>. ومع احتكاك الزيانيين بالأندلسيين والتقاء حضارتيهما

<sup>158</sup>-عبد الرحمن خلدون، م.س، ص.50.

<sup>159</sup>-م. ن، ص.69.

<sup>160</sup>--Mahfoud Keddache, Op.cit., p.147

<sup>161</sup>-M.A. Haddadou, Les berbères célèbres, BERTI Édition, Alger, 2003, p.55.

\*-كان يطلق على يغمراسن لقب "دادا(Dadda)" وهي كلمة أمازيغية يقصد بها في مختلف اللهجات: "أب"، "أخ أكبر"، "فائد أعظم". (ينظر: M.A. Haddadou, Op.cit., p.54).

المتكاملتين تحولت تلمسان إلى عاصمة ثقافية وصارت مركز إشعاع فكري، وأضحت قبلة تجلب العلماء والمتعلمين من الشرق والغرب ف"رحل إليها الناس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع، فنشأ بها العلماء، واشتهر فيها الأعلام. وضاهت أمصار الدولة الإسلامية والقواعد الخلافية"<sup>(162)</sup>. حدث كل هذا والدولة تشهد حروبا تحركها المطامع التوسعية السياسية، وتحاول إبطال ما يحاك ضدها من دسائس ومكائد أطرافها الإخوة الأعداء المجاورين. و لم يكن ما أصاب سياسة الدولة الوادية واقتصادها من وهن خلال القرن الخامس عشر ليطل حياتها الروحية والثقافية، التي بقيت منيعة ضد صروف الدهر وتقلباته والتي لا تزال تُستنطق علامتها الحضارية من شتى ما يصدر عن المجتمعات الأمازيغية المغاربية من طقوس وعادات وأخلاق لا تشيخ.

---

<sup>162</sup> -عبد الرحمن خلدون، م.س، ص108..

## دور القوى المحلية في الجزائر في ظل الحكم العثماني

الدكتور أرزقي  
أستاذ محاضر جامعة الجزائر

إن ما يلفت انتباه الباحثين عند دراستهم لتاريخ المغرب، هو تكرار ظاهرة زوال الدولة، وذلك منذ الفتح الإسلامي للمنطقة إلى غاية مطلع القرن السادس عشر. فتكون مداخلتنا هذه مقصورة على المغرب الأوسط (الجزائر). لقد تداولت على السلطة خلال الفترة المذكورة عدة دول، منها الرستمية، والفاطمية، والحمادية، والمرابطية، والموحدية، والزيانية.

وإذا سبق للعلامة عبد الرحمن بن خلدون أن حلل في مقدمته الأسباب المتحكمة في تلك الظاهرة<sup>163</sup>، فإن الأسئلة التي تفرض نفسها في وقتنا الحاضر، هي: لماذا اختفت ظاهرة الدولة في الجزائر منذ أن ألحقت بالدولة العثمانية في مطلع القرن السادس عشر؟ وما هو مصير بقايا تلك الدول؟

قبل الإجابة على الأسئلة المطروحة، فإنه من الضروري أن نقدم لمحة مختصرة عن الأوضاع العامة في الأقطار المغاربية، مبرزين العوامل التي كانت وراء زوال الدول فيها، ثم نعالج بالدراسة والتحليل دور القوى المحلية في الجزائر في ظل الحكم العثماني، ونتوقف عند الأسباب التي حالت دون تمكن تلك القوى من تأسيس دولة وطنية مستقلة تضمن استمرارية الدول الإسلامية التي ظهرت قبل قدوم العثمانيين إلى منطقة المغرب في مطلع القرن السادس عشر.

عبد الرحمان بن خلدون : مقدمة ابن خلدون، دار الجيل بيروت، ص. 323. <sup>163</sup>

الأوضاع العامة في المغرب أواخر القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر:

دخلت منطقة المغرب في أواخر القرن الخامس عشر في فترة ضعف، نتيجة الصراعات الناشئة بين الدول الثلاث (الحفصية في المغرب الأدنى، والزيانية في المغرب الأوسط، والمرينية في المغرب الأقصى). وكانت أسباب الحروب المتعددة بين تلك الدول، السعي إلى الاستيلاء على أملاك الجار. وقد أدى ذلك كله إلى تدهور أوضاع تلك الدول السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، مما جعلها عرضة للأطماع الأوربية الاستعمارية. فقد تعرضت معظم المدن المغربية الساحلية للغزو الإسباني البرتغالي منذ القرن الخامس عشر. وتعد الدولة الزيانية في المغرب الأوسط، من الدول التي تضررت كثيرا من تلك التحولات التي طرأت على كل المستويات المحلية، والإقليمية، والدولية. - محليا: اشتد الصراع بين أفراد الأسرة الزيانية على الحكم، وهذا ما جعل كل طرف يستعين بقوة خارجية للاستيلاء على العرش، وغالبا ما كان ذلك الصراع يخلف خسائر مادية وبشرية معتبرة. وهكذا، فقدت الدولة الزيانية هيبتها، وعمت الفوضى أرجاءها. فلم تعد قادرة على إبقاء تحت نفوذها بعض الجهات من البلاد، فقد لاحظنا خروج بعض أمراء الأقاليم وشيوخ القبائل والزعامات الدينية عن طاعتها، ونذكر على سبيل المثال الأمير الزياني حميدة العبد الذي استقل بتنس في أواخر أيام الدولة. فانحصرت سلطة حكامها على مدينة تلمسان وضواحيها. وهذا ما جعل أحد المؤرخين يصف السلطة في الجزائر في مطلع القرن السادس عشر، بأنها عبارة عن فسيفساء.

- إقليميا: فقدت الدولة الزيانية بعض الأجزاء من مملكتها لحساب الحفصيين والمرينيين. فقد أقدم الحفصيون على ضم بعض الأقاليم الشرقية للجزائر، مثل بجاية وعنابة وبسكرة. وامتد نفوذ المرينيين إلى أقاليم الغرب، بل احتلوا في فترة من الفترات تلمسان عاصمة الزيانيين. كما حدث أن تحالف الزيانون مع الحفصيين ضد الزيانيين. - دوليا: إن الضعف الداخلي الذي حل بالدولة الزيانية، قد شجع إسبانيا على شن حملات عسكرية على السواحل الجزائرية، تمكنت خلالها من

احتلال معظم المدن الساحلية، منها: المرسى الكبير، ووهران، وصخرة البنيون بمدخل ميناء الجزائر، وبجاية، ومستغانم، وعنابة<sup>164</sup>. وكان سقوط غرناطة في عام 1492م، وفشل مسلمي الأندلس في مواجهة الإسبان، من الأسباب التي كانت وراء هذه الحملة الاستعمارية الشرسة، والتي يمكن اعتبارها من العوامل التي حالت دون ظهور قوة محلية بإمكانها إعادة بعث الدولة الإسلامية في الجزائر خلفا للدولة الزيانية الزائلة.

إن ما يمكن استخلاصه من هذا العرض المختصر، هو أن الجزائر كانت في مطلع القرن السادس عشر تفتقر إلى سلطة مركزية قادرة على التصدي للخطر الخارجي الذي أضى يهدد كيانها. كما أنه بالرغم من ظهور بعض الزعامات المحلية في مختلف جهات البلاد، فإنها لم تتمكن إحدى هن من جمع شمل القبائل، ووضع أسس لنواة دولة وطنية تأخذ على عاتقها مسؤولية ملء الفراغ الذي تركه الزيانيون. فاضطرت أمام عجزها هذا، إلى الاستنجاد بالدولة العثمانية لمواجهة الأخطار الخارجية المحدقة بها<sup>165</sup>. وهنا أيضا تستوقفنا جملة من التساؤلات، منها: ما هي الأسباب التي حالت دون توصل الزعامات المحلية إلى تأسيس دولة وطنية؟ هل هناك زعامة قادرة حقا على توحيد السكان تحت راية واحدة؟ هل يعود ذلك إلى قلة الإمكانيات المادية والبشرية وشساعة البلاد، أو إلى عدم تبلور مفهوم الدولة عند تلك الزعامات؟

أسباب عجز القوى المحلية عن ضمان استمرارية الدولة : عرف عن الجزائريين أنهم يميلون إلى الحرية في سلوكهم اليومي و في طريقة عيشهم، ويفرون من قيود السلطة، إلا أنهم كانوا يلتزمون ويتحالفون فيما بينهم بمجرد شعورهم بخطر خارجي يهدد حياتهم، ولكن

( أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792،<sup>164</sup> ش.و.ن.ت. الجزائر 1976، ص. 127.

<sup>165</sup> مجهول: كتاب غزوات عروج وخير الدين، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، مكتبة رودوسي قدور بن مراد، الجزائر 1934، ص. 19.



## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

هذه الحالة كانت تتسم بالظرفية، إذ يتفرقون من جديد مباشرة بعد تلاشي العامل الذي كان وراء تحالفهم.

لقد ساهمت عدة عوامل في عدم بروز قوة محلية قادرة على توحيد المجتمع، ووضع أسس لدولة جديدة، أو إعادة بعث الممالك الأمازيغية المندثرة. ومن جملة تلك العوامل، يمكن أن نذكر، الآتي:

1 – إن الوضع الذي آلت إليه الجزائر في أواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر، لم يكن يسمح بظهور قوة محلية قادرة على القيام بدور التوحيدي. فقد عمت الفوضى، وتدهورت الأوضاع العامة، وتفكك المجتمع، وقد أدى ذلك كله إلى ضعف السلطة المركزية المتمثلة في الزيانيين، فأصبحت تفتقر إلى الإمكانيات المادية والبشرية لجمع شمل القبائل المتناثرة والمتناحرة. علاوة على الرقعة الجغرافية للبلاد التي كان تغطيتها من الناحية الأمنية، يتطلب عددا كبيرا من القوات العسكرية.

2 – الخطر الخارجي، لاسيما الإسباني الذي كان يهدد باستمرار منذ أواخر القرن الخامس عشر، البلاد والعباد، قد أعاق عملية ظهور قيادة قادرة على تنظيم المقاومة، نتيجة للأسباب التي سبق ذكرها. علما أن هذا العامل كان بإمكانه، أن يكون كافيا لتوحيد السكان، إلا أن الضعف العام الذي أصاب البلاد، قد حال دون ذلك.

وكانت الأوضاع التي وصفنا جانبها منها، سببا في قدوم العثمانيين إلى المغرب، والذين توصلوا إلى ربطه، ما عدا المغرب الأقصى، بالمشرق الإسلامي مجددا، بعد أن عرفت تلك الروابط تراجعاً، نتيجة التفكك الذي تعرضت له الخلافة الإسلامية مشرقاً ومغرباً.

دور القوى المحلية في ظل الحكم العثماني:  
يرى بعض المؤرخين أن الأتراك العثمانيين قد انفردوا بالسلطة في الجزائر طوال فترة حكمهم لها، ولم يتركوا أي دور للقوى المحلية يذكر، وأن السياسة التي نهجها الوافدون قد حالت دون انتقال السلطة الفعلية إلى

العنصر المحلي<sup>166</sup>. عند تناولنا لموضوع طبيعة الحكم العثماني في الجزائر، تتبادر إلى أذهاننا بعض التساؤلات الموضوعية والمشروعة، منها على سبيل المثال، ما هي طبيعة الحكم العثماني في الجزائر؟ هل كان للقوى المحلية دور في تسيير دواليب الحكم؟ ما هي الأطراف الفاعلة في الحكم؟

إن كل هذه التساؤلات المطروحة تستوقفنا، وتتطلب منا مناقشتها بكل موضوعية لإظهار الحقيقة التاريخية، ولا يتأتى ذلك، إلا من خلال دراسة طبيعة العلاقات السائدة بين الأتراك العثمانيين والقوى المحلية الفاعلة، وتحديد الميكانيزمات التي وضعها العثمانيون لإبقاء البلاد تحت نفوذهم لفترة تزيد عن ثلاثة قرون ( 1519-1830م). وقبل الشروع في الإجابة على التساؤلات المطروحة، لا بد أن نعرف بالقوى المحلّة. تعريف القوى المحلية: نعني بها ما تبقى من الأسرة الزيانية، والأسر التقليدية العريقة والثرية والعلمية و الشريفة، التي استوطنت المدن والأمصار منذ وقت بعيد. ونذكر على سبيل المثال، أسرة الفكون، وعبد المؤمن، وابن باديس، والوزان وغيرها في بايلك قسنطينة. أما على مستوى الأرياف، فالقوى المحلية، كانت تمثلها بعض الأسر الإقطاعية والدينية، أمثال آل العباس، وآل القاضي، وابن علي الشريف، وأث أورابح في بلاد الزواوة الغربية والشرقية. وآل مقران في مجانة، وابن قانة، والدواودة، وبوعكاز، وابن حبيلس، وابن عاشور في بايلك قسنطينة<sup>167</sup>، وابن شهرة في بايلك التيطري، والتيجانيين، والقادريين، وأولاد سيدي الشيخ وغيرهم في بايلك الغرب. إن تحديد دور هذه القوى في ظل الحكم العثماني، يتطلب أولا معرفة طبيعة علاقتها بالسلطة الحاكمة. فالوضع الذي آلت إليه البلاد في مطلع

<sup>166</sup> ) J.J.E. ROY : Histoire de l'Algérie depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours, Ad. Mame et Cie, Tour 1859, PP.202-203.

<sup>167</sup> ) L.C. FERAUD : « Notes historiques sur la province de Constantine, les Beni Djellab Sultans de Touggourt », in R.A. N° 24, Alger 1880, PP. 105-106.

القرن السادس عشر، لم يكن يسمح للقوى المحلية بمواجهة خطر الإسبان، الذين احتلوا بعض المدن الساحلية، وهذا ما أدى بالسكان إلى هجرتها، ليعتصموا بالمناطق الداخلية الجبلية والصحراوية البعيد عن نقاط إنزال الجيوش الغازية. أما الباقون منهم، فقد اضطروا إلى الاستنجاد بالعثمانيين.

فكرة الجهاد التي جاء بها العثمانيون، جعلت سكان المدن يلتفون حولهم، ويربطون مصيرهم بمصيرهم، وذلك منذ مطلع القرن السادس عشر، ليستمر ذلك الترابط إلى غاية سقوط مدينة الجزائر في أيدي الفرنسيين في عام 1830م، وزوال الحكم العثماني بها<sup>168</sup>. ولم يحاول سكان المدن بمختلف فئاتهم، طوال فترة الحكم العثماني، القيام بحركة انفصالية، إذا استثنينا المحاولة الوحيدة التي وقعت في مدينة الجزائر في مطلع القرن السادس عشر، والتي قمعها العثمانيون بعنف شديد<sup>169</sup>. وبالرغم من الفرص التي أتاحت لسكان المدن في العديد من المناسبات للانقلاب ضد العثمانيين، فإنهم فضلوا أن يبقوا أوفياء لهم. أما على مستوى الأرياف، فإن العلاقة بين القوى المحلية و العثمانيين، فإنها كانت تختلف عن تلك الموجودة في المدن. فكانت تتميز بالتقارب تارة، وبالتوتر تارة أخرى، فكانت تتحكم فيها عدة عوامل، منها: المصالح المشتركة، والتوازن القوى، وأحسن مثال على ذلك، علاقة العثمانيين بالقوى المحلية في بلاد الزواوة، المتمثلة في إمارتي أت عباس، وأت القاصي.

فقد تحالف العثمانيون في بداية وجودهم في الجزائر بحكام الإمارات لمواجهة الخطر الخارجي، إلا أنه سرعان ما توترت العلاقات فيما بينهم، نتيجة تعارض الأهداف والمصالح. فالعثمانيون كان هدفهم الانفراد بالسلطة، وإخضاع الجميع إلى طاعتهم، في حين كان حكام الإمارات يسعون إلى التمتع بالاستقلال، والاكتفاء بالتحالف مع

( أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، ج 9، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ج 1، ص 460.

( مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد دراج، شركة الأصالة للنشر، الجزائر 2010،<sup>169</sup> ص.115.

العثمانيين، والتعامل معهم الند للند، وهذا ما لم يرض به العثمانيون. ففي نظر العثمانيين أن كل المسلمين مهما كان مركزهم، يجب عليهم أن يكونوا خاضعين لطاعة السلطان الأعظم ممثل الخلافة الإسلامية<sup>170</sup>. وبالرغم من الصراعات والحروب التي طبعت علاقات العثمانيين بحكام الإمارات، فإن العثمانيين توصلوا مع مرور الوقت، إلى تحقيق أهدافهم، إذ أخضعوا حكام الإمارات بفضل الأسلوب الذي اتبعوه في معاملتهم معهم. فكانوا يتحالفون تارة مع آل عباس، وتارة أخرى مع آل القاضي. كما أن الانقسامات الداخلية في الأسرة الواحدة، والصراعات الدائمة بين الإمارات، قد ساهم في إضعاف كلا الإمارات، مما سهل من مهمة العثمانيين<sup>171</sup>.

لقد وظف العثمانيون منذ بداية عهدهم في الجزائر، عدة أساليب لاستمالة حكام الإمارات إلى صفهم، ومن تلك الأساليب، ربط علاقات المصاهرة مع حكام الأوسرئين آل القاضي، وآل مقرران. فقد تزوج عدد من الحكام العثمانيين ببنات آل القاضي وآل مقرران، نذكر منهم، حسن بن خير الدين، وعلج علي، وعلي بتشين، وأحمد القلي. وهكذا تحول حكام الإمارات على غرار الأسر الكبيرة، إلى متحالفين مع العثمانيين، مقابل حصولهم على بعض الامتيازات المادية. وهذا الأسلوب الذي اتبعه العثمانيون في بلاد الزواوة، يكاد يكون مشابه في كل جهات البلاد. فقد صاهروا معظم القبائل المحلية القوية، حتى أصبح أحد الشروط لتولية منصب الباي. وهناك أمثلة كثيرة حول هذا الموضوع، نذكر منها، أحمد القلي، باي قسنطينة الذي تزوج بإحدى بنات آل مقرران، وتزوج ابنه محمد الشريف والد أحمد باي، آخر بايات قسنطينة ( 1826-1847م)، بإحدى بنات ابن قانه، شيخ عرب منطقة الزيبان، وباي التيطري مصطفى الوزناجي، الذي أخذ إحدى بنات عائلة ابن شهرة لابنه أحمد<sup>172</sup>.

<sup>170</sup> ( غزوات خير الدين...، ص. 114. )

<sup>171</sup> C. BONTEMS : Manuel des institutions algériennes de la domination turque en Algérie, éd. CUIJAS, Paris 1976, P.62.

<sup>172</sup> M. GUIN : « Notes Historiques sur les Adaoura », in R.A N° 17, Alger 1873, P.109.

إذا كان حال الأسر الكبيرة صاحبة المكانة المتميزة في الأرياف، على النحو الذي ذكرناه، فماذا يمكن انتظاره من قبائل الرعية المغلوبة على أمرها. فكل القبائل مهما كان وضعها، كانت خاضعة لشيوخها، الذين هم بدورهم موالين للحكام العثمانيين، مقابل حصولهم على بعض الامتيازات المادية والإدارية. وقد لاحظنا أن القبائل التي كانت تتحمل عبء الضرائب، كانت تنثور ضد السلطة الحاكمة كلما ظهرت قيادة قادرة على تعبيتها، كما حدث ذلك في مطلع القرن التاسع عشر، إذ اندلعت سلسلة من الثورات الريفية بقيادة الطرقيين (الدرقاويين<sup>173</sup>، والتيجانيين)<sup>174</sup>. وكادت تلك الثورات التي أخذ انتشارها حيزا واسعا، أن تحقق ما عجزت عنه القوى المحلية الفاعلة، ألا وهو القضاء على الحكم العثماني في الباياليك، وتأسيس دولة محلية<sup>175</sup>. إلا أن ذلك لم يتحقق، لجملة من الأسباب، التي يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

- عدم التوازن بين الثائرين والعثمانيين من حيث العدة والعتاد.
- عدم تجذر الطريقة الدرقاوية في المجتمع الجزائري، التي يعود منشؤها إلى المغرب الأقصى، وهذا ما أدى بالعديد من القبائل إلى التخلي عنها.
- سياسة الترهيب والترغيب التي اتبعها العثمانيون ضد القبائل الثائرة.
- كون العثمانيين مسلمين، أدى إلى ضعف فكرة الجهاد لدى السكان.

<sup>173</sup>) A. DELPECHE : « Résumé Historique sur le soulèvement des d'Arkaoua, d'après la chronique d'El Mosselem Ben Bach-Defdar du dey Gassan 1800-1813 », in R.A. N° 18 Alger 1874, P.58.

<sup>174</sup>) L. ARNAUD : « Histoire de l'Ouali sidi Ahmed Tedjani », in R.A. N° 5 Alger 1861, P.468.

<sup>175</sup>) DEPONT ET COPPOLANI : Les confréries religieuses musulmanes, A. Jourdan, Alger 1897, P.422. Voir aussi E. DOUTTE : Notes sur l'Islam Maghrébin, Les Marabouts, E. Roux éd. Paris 1900.

قامت الثورات على فكرة الجهاد، فقد تمكن قادتها في بداية

أمرهم من

تعبئة السكان ضد العثمانيين، إلا أن ما لبث أن أثبت هذا المنطلق فشله. وقد أثبت التاريخ أن توظيف فكرة الجهاد ضد عدو من نفس المعتقد،

غالبًا ما يكون مصيره الفشل، وهذا ما يمكن استخلاصه من الثورة

الدرقاوية، إذ لما عزم عبد القادر بن الشريف الدرقاوي إعلان الحرب

على العثمانيين، اتصل بشيخه محمد العربي الدرقاوي معبرا له عن

نواياه، فقد قال له: " يا سيدي إن بوطننا قوما يقال لهم الترك لاشيء لهم

من دعائم الإسلام، ويظلمون الناس، ولا يعبؤون بالعلماء والأولياء،

نسأل منك أن يكون هلاكهم على يدي ليسترح منهم العباد وتطهر منهم

البلاد. فقال له: عليك بجهادهم وقتالهم، وأن الله ينصرك عليهم" <sup>176</sup>

وعلى ما يبدو أن فكرة الجهاد التي وظفها ابن الشريف سرعان ما تراجع

مفعولها، إذ لما استقدمت السلطة الحاكمة الشيخ محمد العربي الدرقاوي

من المغرب الأقصى قصد إقناع تلميذه ابن الشريف، بفك الحصار عن

مدينة وهران، وشهد جانبا من الاقتتال وشدة الحرب، قال لتلميذه: " يا

سيدي عبد القادر بن الشريف إنك قلت لي أن الترك ومن تبعهم نصارى

ولا يصومون ولا يصلون وليس لهم من الدعائم الشرعية شيئا، وسألت

مني الإذن في جهادهم، فأذنت لك، وإني لما رأيتهم، وجدتهم أشد إيمانا

وعبادة مني ومنك، إن الجهاد فيك وفي قومك جائز لا في أهل وهران،

إن الدائرة عليك لا لك، إن القتال في هذا اليوم وهو الفراق بيني وبينك،

وإنني يرى مما أنت مرتكبه" <sup>177</sup>

- عدم التحالف والتلاحم بين الثائرين وسكان المدن، الذين فضلوا الوقوف

إلى جانب العثمانيين ومساعدتهم على التصدي للحصار الذي فرضه

الثائرون على المدن.

( محمد بن يوسف الزباني : دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق <sup>176</sup> المهدي البوعدي، ش.و.ن.ت، الجزائر 1978، ص. 208.

( نفسه، <sup>177</sup> 213.

- كان بإمكان الزعامات الدينية أن تحقق ما عجزت عليه القوى المحلية العريقة، لكن ما لاحظناه، هو أن عنصر الدين لم يكن عاملا موحدا، وذلك بسبب اختلاف أهداف ورؤى الطرق الدينية. وبالرغم من الانتشار الواسع الذي عرفته بعض الطرق، مثل الطريقة الرحمانية في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر، فإن شساعة البلاد، وقلة الإمكانات، وتنوع المجتمع الجزائري في ذاته من حيث العادات والتقاليد واللغة ونمط المعيشة، قد صعب من مهمة توحيد السكان. علاوة على عدم تبلور فكرة الدولة عند الزعامات المحلية، التي كان يغلب عليه الفكر القبلي.

### طبيعة الحكم العثماني :

لقد أجمعت المصادر والمراجع على أن عدد العثمانيين في الجزائر لم يكن يتجاوز عشرة آلاف عسكري، بل عرف هذا العدد انخفاضا ملحوظا في العقود الثلاثة الأخيرة (1800-1830م)، ليصل في السنوات الأخيرة منها إلى أربعة آلاف<sup>178</sup>. وكان حوالي نصف العدد يربط في الثكنات الموجودة بمدينة الجزائر. أما الباقي، فكان يوزع على الحاميات العسكرية والأبراج المنتشرة في المدن والمناطق الحساسة. ولم يكن عدد الجنود المرابطين في البرج الواحد يتجاوز ستين جنديا. كما كان يرسل من هؤلاء الجنود محلة إلى الباياليك الثلاثة لجمع الضرائب مرتين في السنة. وكان عدد الجنود الذين يشكلون المحلة الواحدة يتراوح ما بين مائتين وثلاثمائة جندي.

إن ما أردنا التأكيد عليه من خلال تقديم هذه الإحصاءات، هو أن اتصال سكان الأرياف بالعثمانيين كان ضعيفا، ومحدودا. والسؤال المطروح هنا، هو، كيف تمكن العثمانيون بهذا القليل من الجنود من إخضاع السكان الذي كان عددهم يناهز ثلاثة ملايين نسمة، منهم 5% في المدن و95% في الريف؟ أعتقد أن كل تعدد الجيش الجزائري يجد الصعوبة

( وثائق عثمانية، " تقرير عمر لطفي محتسب أمير إلى الباب العالي"، رقم الوثيقة 22530،<sup>178</sup>، السنة 1246هـ/1830م، المركز الوطني الجزائري للأرشيف .

## ممالك الأمازيغ في العهد الإسلامي

في التطويق جزء من البايك، وما بالك إذا تعلق الأمر ببايك قسنطية المترامي الأطراف.

كان سكان المدن تحت سلطة العثمانيين المباشرة، فكانوا خاضعين لهم، وربطوا مصيرهم بمصيرهم منذ أن استقر العثمانيون في الجزائر. أما سكان الأرياف، فكانوا خاضعين لزعاماتهم القبلية والدينية، التي كانت تعينها عليهم السلطة الحاكمة. فأصبحت تشكل ما يعرف بالمخزن. وكان دورها يتمثل الجوانب الاقتصادية، مثل جمع الضرائب، واستغلال أراضي البايك، ومهام عسكرية، مثل حفظ الأمن، وتوفير الرجال والخيول، والمساهمة في قمع حركات التمرد، وإخماد الانتفاضات، علاوة على مهام إدارية، مثل إحصاء القبائل، والاعتناء بسجلات الضرائب وغيرها<sup>179</sup>.

يتضح مما تقدم، أن العثمانيين كان لهم حضورا ملموسا في المدن الرئيسية حيث كثرة عددهم. فعرفوا كيف يستملون إلى صفهم الأعيان والعلماء والأشراف، وذلك عن طريق منحهم بعض الامتيازات المادية، كإعفائهم عن دفع بعض الضرائب، والإدارية، كمنحهم بعض الوظائف، مثل القضاء، والإفتاء والقايد وغيرها. ولهذا السبب لم ير هؤلاء ضرورة الخروج عن طاعة العثمانيين، لاسيما أنهم مسلمون مثلهم.

أما في الأرياف، فإن العثمانيين لم ينفردوا بالسلطة، إذ كان تعاملهم مع السكان غير مباشر. فالسلطة الفعلية كانت في يد القوى المحلية، المتمثلة في الزعامات الدينية والقبلية، التي فضلت هي الأخرى الاستفادة من نصيب من الربيع والتمتع به، وكان ذلك على حساب محاولة التفكير في تأسيس دولة محلية. كما أن فكرة الجهاد التي كانت تعد من العوامل الأساسية لبعثه السكان للدفاع عن الدولة، قد زالت لكون العنصر الدخيل يدين بنفس الدين، ويحمل نفس العقيدة. فعلى إذا أن ننتظر زوال الحكم

---

<sup>179</sup>) W. ESTERHAZY : Notice Historique sur le Makhzen d'Oran, Perrier, Oran 1849. Voir aussi M. EMERIT : « Les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du XVIII é siècle », in extrait des travaux de l'Inst. De recherches sahariennes, T. XI, Alger 1954.



العثماني في الجزائر في العقد الثالث من القرن التاسع عشر، لكي تظهر دولة وطنية بقيادة الأمير عبد القادر (1832-1847م)، الذي عرف كيف يوظف فكرة الجهاد في إعادة بعث الدولة الجزائرية. وقد يعود سبب نجاح الأمير في تعبئة جزء كبير من السكان تحت لواء الراية الإسلامية، إلى كون الغازي يحمل ديناً مخالفاً للدين الإسلامي، كما أن من أهدافه الأساسية تتمثل في محاربة مقومات الجزائريين، المتمثلة في الدين، واللغة، والعادات والتقاليد.

إن الظروف التي ظهرت فيها دولة الأمير لا تختلف عن تلك التي ظهر فيها الحكم العثماني في الجزائر. فقد وظف العثمانيون والأمير عبد القادر فكرة الجهاد لتعبئة السكان لمواجهة الغزو الإسباني في مطلع القرن السادس عشر، والغزو الفرنسي في مطلع التاسع عشر. بينما فشلت القوى المحلية في ظل الحكم العثماني في جعل من فكرة الجهاد منطلقاً لإعادة بحث الدولة التقليدية المحلية، وسبب عدم تحقيق ذلك يعود في نظرنا إلى كون العثمانيين مسلمين.

خلاصة القول: إن ما يمكن استخلاصه من هذا العرض، هو أن عدم استمرار ظاهرة الدولة في الجزائر، يعود إلى جملة من العوامل التي يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

- 1 - انتشار النزعة القبلية في المجتمع الجزائري، وعدم تبلور فكرة الدولة لدى القبائل المتناثرة والمتناحرة.

- 2 - تنوع مرجعيات السكان الدينية واختلافها. لم تبرز طوال الحكم العثماني طريقة دينية قادرة على جمع شمل السكان، فلكل طريقة أتباعها.

- 3 - تنوع أصول وعادات وتقاليد السكان وتضارب مصالح الزعامات المحلية، قد صعب مهمة توحيدهم في كيان واحد.

- 4 - اتساع الرقعة الجغرافية للجزائر كان عائقاً في جمع شمل السكان والتواصل فيما بينهم.

5 - الخطر الخارجي الذي كان يهدد البلاد باستمرار، وكون العثمانيين مسلمين، قد أبطل فعالية فكرة الجهاد، التي في الواقع تعد من العناصر الأساسية والضرورية لاستمرار الدولة. كما تدهور الأوضاع والضعف العام الذي آلت إليه البلاد، لم تكن تسمح بظهور قائد قادر على تعبئة السكان لمواجهة الخطر الإسباني. فما لم يتمكن الجزائريون من تحقيقه، قد حققه العثمانيون، الذين وظفوا فكرة الجهاد، لإعادة بعث الدولة الجزائرية الحديثة.

